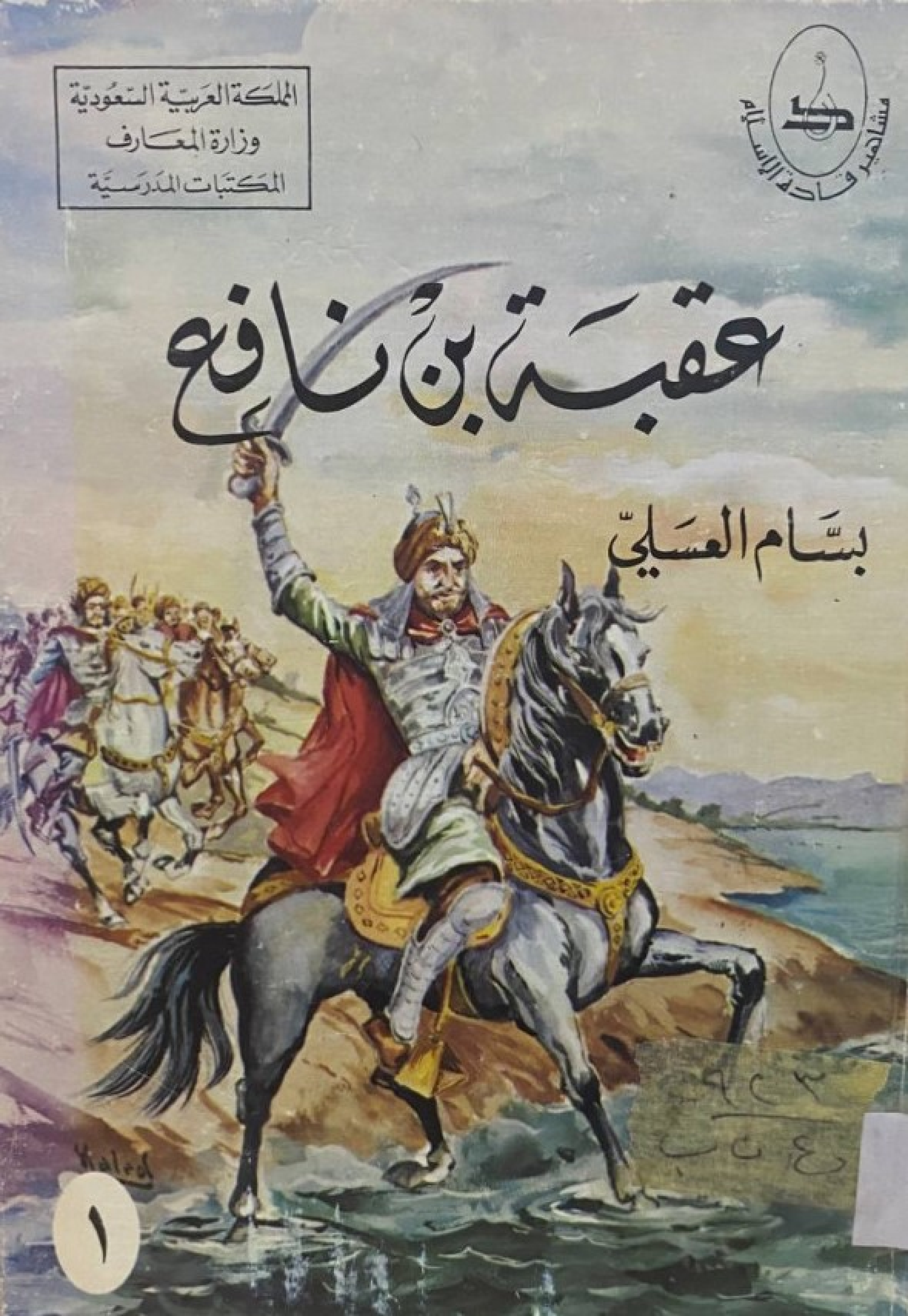

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية
مشاهير قادة الإسلام
عقبة بن نافع
بسّام العسليّ
١

مشاهير قادة الإسلام

عقبة بن نافع
الفهري

بسام العسلي

دار النفائس

الطبعة الأولى

١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م

دار النفائس ت ٢٥٨٧٢٨ - ص.ب ١١٦٣٤٧ - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

عقبة بن نافع

من وصية عقبة[1]

« ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون »

(آل عمران ١٥٧ — ١٥٨)

(يا بني ! اني قد بعت نفسي من الله عز وجل ، فلا أزال أجاهد من كفر بالله ··· يا بني ! أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها ، اياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر ، وتتركوا القرآن ، فان القرآن دليل على الله عز وجل ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الاخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه ·

---

(١) من حديث عقبة بن نافع لبنيه يوم ودعهم ـ في حربه خلال ولايته الثانية · رياض النفوس ١/٢٢ ـ ٢٣ وابن الاثير ٤/٤٢ ·

وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء ، فان الدين ذل بالنهار وهم بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبق لكم أقداركم وأعراضكم وتبــق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم ، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ، ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى ، ولا تأخذوا دينكم الا مــن أهل الورع والاحتياط ، فهو أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا ، وعليكم سلام الله ، وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا ، اللهم تقبــل نفسي في رضاك ، واجعــل الجهــاد رحمتــي ودار كرامتي عندك) ٠

مقدمة الناشر

« ... إلا أن معرفة الاجزاء العليا من الحرب لا تكتسب إلا بالتجربة وبدراسة تاريخ الحروب ومعارك كبار القادة . »

(بونابرت)

أن يكون العالم « مدناً فاضلة » يسود بينها السلام ، فذلك أمل عقلاء البشر من أقدم العصور ، لكن واقع البشرية صراع ضار ابتدأ مع وجود الانسان على الارض ، ولن ينتهي إلا بزواله . فترات الهدوء في تاريخ العالم إما لتضميد جراح حروب وضعت أوزارها ، أو للاستعداد لحروب يهيأ لها . « توازن القوى » الحالي وحده يؤجل حرباً عالمية قد تقضي على الجنس البشري برمته . لكن « تعايش » الاقوياء غالباً ما يكون على حساب الضعفاء في عالم تحكمه المصلحة .

ولئن كان في ثروة الضعفاء مطمع ، فان المنطقة العربية عدا

عن كونها أغنى بقعة في العالم ، فان موقعها الستراتيجي الذي يتيح للمسيطر عليها ان يتحكم في العالم ، يجعلها مركز نزاع دائم يظهر بشكل عنيف آناً ويأخذ شكل الحرب الباردة احياناً .

وشعوب المنطقة التي تستيقظ حالياً من سبات طال أمده حيرى تجاه حضارة أجنبية متفوقة ، وحضارة ذاتية عريقة أصبحت في ذمة التاريخ ، وأمل ينطلق من أن ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرات فيعود للعرب دورهم الذي افتقدوه ويقومون بالمسؤولية التي القيت على عاتقهم في قوله جل وعلا (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) .

لقد جلا الاستعمار « الاحتلالي » عن بلاد العرب ، وخلّف وراءه ، من جملة ما خلف ، استعماراً ثقافياً ، نشأ عنه تبعية في عقول كثير من المثقفين ، وهذه التبعية الفكرية لجهة ما ، ولدت ردة فعل أعنف في أفكار آخرين ، مما أدى الى تباين كبير في الآراء السائدة ، والمنطلقات ، مع ان لحظة تحرر فكري لعقل واع تبين أوجه الخير والصواب في كل معتقد واتجاه .

فالحقيقة التي لا مجال لنكرانها هي ان الانسان مركب من مادة وروح ، لذلك لا ينطبق على الشعوب ما ينطبق على المواد الكيميائية ، اذا مزجت عنصرين أو اكثر منها في شروط متماثلة وفي أي مكان من العالم حصلت على نتيجة واحدة . فاذا كانت

بصمات انسان ما قد لا يوجد مثيل لها بين الناس جميعاً،فبالحري أن يكون لكل أمة ذاتيتها وشخصيتها ، وبالتالي فمن واجب أبنائها ان يتبينوا خصائصها ، ويعرفوا سلبياتها وايجابياتها ، ويستفيدوا من تجاربها وما سجله تاريخها .

والانسان هو العنصر الاساس في ثروة كل أمة . وتخريبه فكرياً هو هدف العدو في السلم ، والقضاء عليه بشكل كامل هو هدفه في الحرب . وفي الحروب توضع الموارد كلها والثروات والاسلحة ... وغيرها بتصرف القادة ، فان أحسنوا استخدامها حققوا النصر ، وان اساؤوا حصدوا الكارثة . ولا أعتقد أننا بحاجة لضرب الأمثلة في هذه المقدمة عن جيوش وشعوب استسلمت أو هزمت أمام أعدائها واسلحتها سليمة ، ومواردها اكثر من حاجاتها . فالذي يهزم هو الانسان ، والذي ينتصر هو الانسان ، وتأهيل الانسان ليكون قائداً من أصعب ما يواجه مختلف الشعوب والأمم . لكن يجب ألا يغيب عن ذهننا أن القائد المتفوق لا يستطيع أن يحقق نصراً بأعوان غير أكفاء ، فالعملية عملية متكاملة تحتاج إلى وعي عام ، وادراك للمبادىء والاهداف .. وتأهيل شخصي يختلف حسب المستويات .

وقد تكون أهم مرتكزات تأهيل القادة دراسة التاريخ بفروعه المختلفة، والتركيز على التاريخ العسكري بشكل خاص، ودراسة حياة القادة الناجحين ، السابقين والمعاصرين ، من جوانبها كلها .

لماذا مشاهير قادة الاسلام ؟

ومما يؤسف له أن تاريخنا ما يزال كما دونه الأقدمون «خليطاً» من المعلومات يقل عدد المستفيدين منها كلما تقدم الزمن . من هنا كان اهتمام « دار النفائس » ضمن الامكانات المتوافرة ، بجانب مهم من تاريخنا هو تاريخ العرب العسكري . ومحاولتها المساهمة في كشف النقاب عن الستراتيجية العربية وعقيدتهم القتالية المتكاملة . فكان كتاب « الطريق الى المدائن » ثم « القادسية » وهما يبحثان في فتح بلاد فارس ، ويستطيع قارئهما أن يتبين أن المسلمين كانوا الى جانب عقيدتهم مقاتلين أشداء بإمرة قادة من طراز فريد في العالم يتفوقون بنواح كثيرة على اولئك الذين دبجت فيهم المقالات وكتبت عنهم المؤلفات في الغرب والشرق .

وبما أن هذا النوع من الدراسات يكون عادة « جافاً » مما يصبر عليه المتخصصون ، ويمله غيرهم من الشباب والمثقفين والعسكريين ، وهم الموجهة اليهم أصلاً هذه الدراسات ، لذلك كانت سلسلة « **مشاهير قادة الاسلام** » التي نأمل ونعمل لئلا تكون مجموعة كتيبات تضاف الى الكتب المتوافرة في الاسواق ، وان تحوي الميزات التالية :

١ – إعطاء فكرة عامة عن الشخصية موضوع الدراسة بشكل شائق يجعل القارىء يعيش معها ويتابعها في أعمالها .

٢ – الانطلاق من دراسة الماضي بعظمته الى المستقبل المنشود ،

بالتوفيق بين فن الحرب في عهد وسائل النضال البدائية وفن الحرب في عصر الوسائط المتقدمة، «ضمن اطار الحرب التقليدية – غير الذرية» .

٣ – برمجة الاحداث التاريخية باسلوب يتلاءم مع روح العصر، ثم تحليلها والخروج منها بالعبر والعظات، وهو ما يسمى بالتعبير العسكري بـ« الدروس المستفادة » .

٤ – ابراز التكامل والتطور في عقيدة القتال عند العرب المسلمين من خلال منجزات قادتهم . والبرهنة على قدرة هذه العقيدة على تكوين قاعدة سياسية واستراتيجية تتوافق مع متطلبات العصر ومع طبيعة التحديات مهما كان مصدرها او شكلها او زمانها .

٥ – ابراز التفاعل بين عقيدة القتال عند العرب المسلمين وبين مجموعة الظروف المحيطة في الاطارين الزماني والمكاني مما يبرهن على دورهم الكبير في فن الحرب .

وهذه الحلقة تتناول **عقبة بن نافع**، القائد العربي المسلم الذي يمثل نمطاً من اولئك القادة أولي الخبرة الذين جمعوا بين الايمان وميزات القائد الأصيل . **وليس هدفها – كما يقول المؤلف – تخليد ذكرى عقبة بن نافع فذكراه خالدة ما دام هناك وجود للعرب المسلمين . وانما هي محاولة لتسليط بعض الأضواء على حياة عقبة بن نافع القيادية بأسلوب متطور يجعلها قريبة المأخذ ...**

وكاتب هذه الحلقة، الكاتب العسكري الكبير **بسام العسلي** غني عن التعريف عند العسكريين عموماً وكثير من المثقفين العرب، خاصة أولئك الذين يهتمون بقراءة المجلات العسكرية في العالم العربي، فهو يؤلف ويترجم ويكتب في مختلف المجلات العسكرية العربية منذ عدة سنوات. وليس أقدر على الكتابة في هذه الأمور من عسكري محترف تحول بعد تقاعده من الجيش الى دراسة التاريخ العسكري والستراتيجيات العالمية ومختلف الامور العسكرية. وكتاباته تجمع بين الدراسة العلمية المتعمقة والاسلوب الحديث الذي يشد القارىء الى متابعتها، وربما ساعده في ذلك تجاوزه أحياناً موقف الباحث العلمي الحيادي فظهرت عاطفته الاسلامية وروحه العربية الدافقة، وهذا أمر قد يغفره له انه يكتب عن قضايا أمته وتاريخ شعبه فلا يستطيع أن يكتم مشاعره.

وختاماً نسأل الله أن يوفقنا في سد فراغ كبير في مكتبتنا العربية. ونأمل من المختصين من القراء الكرام ألا يبخلوا علينا بآرائهم وانتقاداتهم، ونحن على استعداد لنشر ما يساعدنا في مهمتنا في الحلقات القادمة، والله المستعان.

احمد راتب عرموش

مقدمة

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .

(الاحزاب ٢٣)

عندما كتبت « فن الحرب في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين » التزمت بمنهج محدد واسلوب معين في اطارين محددين هما الاطار الزمني والاطار المكاني للأرضية التي تفاعلت فوقها أحداث الفتوح. وقد تركز الجهد خلال الدراسة المذكورة حول إبراز الاسس الاستراتيجية ومبادىء فن الحرب دحضاً لكل زعم بأن فتوحات العرب المسلمين انما جاءت في غفلة من الزمن ، وانما حدثت في مرحلة انهيار أقوى قوى العالم القديم متمثلاً بالدولتين البيزنطية والفارسية . وخلصت من ذلك الى قناعة ثابتة وايمان راسخ بأن نجاح العرب المسلمين في نشر رسالتهم وتعريف الدنيا بها انما جاء بتفاعل عوامل ثلاثة رئيسية « ايمان

راسخ بالهدف ، وقوة جماهيرية متلاحمة يجمعها هذا الايمان ، وقيادة على درجة عالية من الكفاءة تستطيع التحرك والعمل على مستوى عقيدة الايمان وعلى مستوى استعداد القوة الجماهيرية للتضحية في سبيل رسالتها » ولقد حاولت تحقيق التوازن في الدراسة لابراز معالم هذه المعطيات . ولكن بقيت نقطة « او اكثر » لا تزال تحفزني في الواقع لابراز دور القادة في تحقيق هذه الاستراتيجية ورسم معالمها بوضوح كامل. ومن هنا انطلقت للعمل في اطار مخطط بحث جديد تتركز فيه الأضواء على القادة الذين كان لهم – دون ريب – دور حاسم وأساسي في إبراز معالم الاستراتيجية العربية وتحديد أبعادها .

لقد عمل هؤلاء القادة ، بوحي من ايمانهم العميق ، على تلمس طريق الصواب ، فكان ايمانهم هو الحافز الذي خلق منهم قوة مبدعة خلاقة فيعالم الفكر السياسي والافق الاستراتيجي. ولعل ما هو مثير في الأمر ، هو ظهور التناسق في هذا الفكر السياسي – الاستراتيجي على اختلاف المستويات القيادية ، وعلى مختلف ميادين القتال . ولكن هذه الاثارة ، إثارة الغرابة والاعجاب تزول عند ادراك عمق الحافز الذي كان موجهاً للقادة في تفكيرهم وسلوكهم . ولقد خلق الحافز الواحد سلوكاً متماثلاً في المواقف جميعها وهذا ما يوضح الانسجام التام في التفكير والتوافق الكامل في العمل بين المستويات القيادية كلها .

لقد كانت حروب المسلمين جميعها حروب إيمان ، مارست

فيها العقيدة دورها الكامل ، في التفكير السياسي والاستراتيجي والعملياتي . وكان للقادة دور أساسي وحاسم في صياغة هـــذا التفكير « وبرمجته » فخلد لنـــا هؤلاء القادة إرثاً خالداً مدى الدهر ، واذا كان خالد بن الوليد ، وأبو عبيدة بن الجراح وسعد ابن أبي وقاص وعمرو بن العاص وعقبة بن نافع وموسى بن نصير وآخرين في مستواهم من الصعب حصرهم وفئـــة دونهم في ممارسة الدور القيادي وانداداً لهم في مجال الفكر والجهاد ، اذا كان هؤلاء جميعاً تراث خالد يعتز به العرب المسلمون ، فانهم في الواقع تراث للدنيا كلها وللحضارة الانسانية جميعها . وبوحي من هذا الايمان ، بدأت الدراسة الجديدة، وكان عقبة بن نافع نموذجاً لها. وان ما يحفزني الى ذلك هو الايمان بضرورة التعرف بتاريخ أمتنا وأمجادها لبناء المستقبل على قاعدة ثابتة من تراث الماضي وأمجاده الخالدة .

بسام العسلي



الفصل الاول

عقبه بن نافع الفهري القرشي [1]

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون»

(الحجرات ـ الآية ١٤)

علو في الحياة وفي الممات ، ودوي يملأ دنيا العرب المسلمين عبر الزمان . ففي كل مدينة عربية أثر يحمل اسم القائد العربي عقبة بن نافع ، هنا في دمشق ثكنة عقبة بن نافع، وهناك مسجد ابن نافع ، وفي مدينة ثالثة شارع يحمل اسم عقبة أو كتيبة تحمل

---

(١) ا هـ حتى ٦٣ هـ . ٦٢١ ـ ٦٨٢م .

علم عقبة ، ومؤلفات وسير ضمها التاريخ القديم والحديث تعالج حياة هذا القائد العظيم الذي ترك للدنيا رمزاً خالداً في الإيمان والتضحية . أما منجزات القائد عقبة وأعماله ، فما هي الا الصورة المشرقة للانسان المسلم ، المرابط ، المجاهد في سبيل الله. وحياته بعد ذلك ، أرق من النسيم في الصحراء القائظة ، تهفو من مفاوز افريقية فتهفو لها القلوب المؤمنة ، وتسكن لسيرة عقبة العقول الباحثة فتجد فيها الاشراق والابداع، القلب المؤمن يغذي العقل المبدع، والعقل المبدع الخلاق يثير في القلب الحماسة، معادلة متكافئة جعلت من القائد عقبة ، الانسان الخالد أبد الدهر ، نطالع سيرته ، ونردد اسمه ، فكأنه غادرنا بالأمس الى عالم الخلود ، أو كأنه لا زال يعيش معنا رغم تباعد العهد بيننا وبينه ، ورغم مرور مئات السنين . خلود في الحياة ، وفي الممات . وتلك هي سيرة عقبة الذي ولد مسلماً ، وعاش مؤمناً مجاهداً ومات شهيدا في سبيل الله فوق السفوح الجنوبية لجبال الأوراس ، في معركة تعرف في التاريخ باسم « معركة تهوذة » .

أما نسبه ، فهو عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر ابن امية[1] ابن الضرب بن الحارث بن فهر القرشي[2] وأمه سبية

(١) أسد الغابة ٣/٤٣٠ والاصابة ٥/٨١ .

(٢) الاستقصا ١/٦٩ ، وجمهرة أنساب العرب ١٧٦ ـ ١٧٧ .

من (عنزة) اسمها النابغة، فهو أخو عمرو بن العاص لأمه [٣] .

وفي رواية انــه ابن خالة عمرو بن العاص [٤] . وفي رواية اخرى ان عمرو بن العاص خاله [٥] . وفي رواية أيضاً انــه ابن أخي العاص ابن وائل السهمي لأمه [٦] ، ويلتقي نسب عقبة بن نافع بنسب عمرو بن العاص من جهــة الأم أولاً ومن جهة الأب ثانياً على اعتبار انهما من قريش .

عاش عقبة بداية حياته والجزيرة العربية تتمخض بالاحداث الجسام ، وعرف الصراع بين المسلمين وبين اعداء الاسلام منذ أن فتح عيونه على الدنيــا ، فكان في صف المسلمين . وتهيأت له الظروف حتى ينهل من مورد الإيمان والاسلام ، فعاش في بيئــة اسلامية صرفة .

وكانت حيــاة العرب في الجزيرة تعتمد على الفروسية ، على القتل والقتال ، ثم جــاء الاسلام فوحد قلوب أبناء الجزيرة ، وجعل للعرب هدفاً نبيلاً يقاتلون من أجله ، فأصبح مناخ الحرب هو المهيمن على بيوتات العرب في الجزيرة كلها . وعاش عقبة في هذا المناخ ، وتفاعل معه ، وجعل من الجهاد في سبيل الله حرفة له ، فصلب عوده منذ حداثة سنه ، وتفتحت فيــه امكانات

---

(٣) جمهرة أنساب العرب ١٦٣ .

(٤) أسد الغابة ٣/٤٢٠ والاستيعاب ٣/١٠٧٥ .

(٥) الاصابة ٥/٨١ .

(٦) سير أعلام النبلاء ٣/٣٤٩ .

القيادة المبكرة ، شأنه في ذلك ، شان قادة المسلمين الاوائل .

وكانت الاحداث الحاسمة في حيـاة عقبة ، والنقاط المضيئة في سيرته كثيرة ، لكن بالمستطاع ايجازها – بهـدف الدراسة والبحث – في مضمون الجدول التالي :

	السنة الهجرية	السنة الميلادية	موجز الاحداث
١	١ق. هـ	٦٢١	ولادة عقبة بن نافع الفهري القرشي في مكة المكرمة .
٢	٢٠	٦٤٠	اشترك عقبة مع عمرو بن العاص في فتح مصر .
٣	٢١	٦٤١	تولى عقبة بن نافع قيادة جيش للمسلمين وفتح ذويله .
٤	٢١	٦٤١	وجّه عمرو بن العاص قوة للمسلمين بقيادة عقبة لفتح النوبة .
٥	٢٢	٦٤١	عاد عقبة الى افريقية ، وتولى قيادة حامية برقة .
٦	٢٦	٦٤٦	اشترك عقبة مع والي مصر الجديد عبدالله بن سرح في فتح طرابلس .
٧	٣٩	٦٥٩	غزا عقبة بن نافع الروم في البحر بأهل مصر .

	السنة الهجرية	السنة الميلادية	موجز الاحداث
٨	٤١	٦٦١	غزا عقبة بن نافع الروم وقبائل لواته المتمردة في أفريقيا .
٩	٤٢	٦٦٢	قاد عقبة المسلمين في برقة وفتح غدامس .
١٠	٤٣	٦٦٣	فتح عقبة كوراً « أقاليم » من السودان .
١١	٤٦	٦٦٦	نزل عقبة بمغداش من سرت وفتح خادر « كادار » .
١٢	٤٩	٦٦٩	غزا عقبة بن نافع الروم في البحر ، فشتا هناك بأهل مصر .
١٣	٥٠	٦٧٠	اختط عقبة مدينة القيروان وصيرها قاعدة متقدمة للمسلمين يرابطون فيها للغزو والحرب ويقيمون فيها أثناء السلم .
١٤	٥٥	٦٧٤	تولى ولاية مصر مسلمة ابن مخلد الأنصاري لمعاوية بن أبي سفيان . فعيّن مسلمة

	السنة الهجرية	السنة الميلادية	موجز الاحداث
			مولاه أبو المهاجر دينـــار لولاية أفريقيا، وعزل عقبة عـــن ولايته ، وأساء أبو المهاجر معاملة عقبة وسجنه ثم أطلقه عندما طلب معاوية ذلـك وسيره الى الشام ، فوعد معاوية بانصافه .
١٥	٦٢	٦٨١	أعاد يزيد بن معاوية القائد لولاية أفريقيا .
١٦	٦٣	٦٨٢	قاد عقبــة جيش الشام الى برقة ، ثم جهــز المسلمين ، وسار بهـــم حتى وصل الأطلسي . وخاض خلال مسيرته مجموعة من العمليات القتالية . واصطدم مع قوات البربر والروم خلال عودته فاستشهد في تهوذة .

يظهر مضمون الجدول السابق أن حياة عقبة بن نافـع العسكرية قد مرت بمراحل مختلفة .

المرحلة الاولى – العمل بقيادة عمرو بن العاص . ولقد كانت

هذه الفترة مفيدة لبناء شخصية عقبة بن نافع القيادية . وقد افاد عقبة من هذه الفترة فاكتسب من عمرو بن العاص الخبرات القتالية والكفاءات القيادية . كما افاد من تجاربه الخاصة عند عمله بصورة مستقلة سواء عند فتح زويلة وعقد الصلح مع اهلها بحيث اصبح ما بين برقه وزويلة[١] سلماً للمسلمين أو عندما عمل في النوبة[٢] فكان اول من مهد السبيل لفتح النوبة من المسلمين .

المرحلة الثانية – تولى قيادة مستقلة كقائد لحامية (برقة)[٣] طوال الفترة بين ٢٢ هـ و ٥٥ هـ . أي زهاء اثني وثلاثين عاماً . ولقد استطاع عقبة خلال هذه الفترة ان يحقق منجزات ضخمة أقلها تأمين الحدود الغربية لمصر ، كما تخللتها غزوتان بحريتان ويأتي بناء القاعدة المتقدمة في القيروان بمثابة الذروة في منجزات عقبة بن نافع كلها .

---

(١) زويلة : مدينة من مدن فزان القديمة تقع في الجنوب الشرقي من (مرزوق) بنحو (١٥٠) كم وتبعد عن مدينة طرابلس والى الجنوب الشرقي منها مسافة ٧٧٠ كم تقريبا . ويميزها المؤرخون بزويلة السودان للتفريق بينها وبن زويلة افريقية التي بناها عبيد الله المهدي قرب تؤنس . وكانت زمن الفتح الاسلامي عاصمة فزان عوضا عن مرزوق .

معجم البلدان ٤/٤١٨ – ٤١٩ ، المسالك والممالك ٣٤ . المشترك وصفا والمفترق صقعا ١٣٦ وكذلك تاريخ الفتح العربي في ليبيا ٢٤ .

(٢) النوبة – بلاد واسعة عريضة جنوب مصر . أول بلادهم بعد أسوان ، معجم البلدان ٨/٣٢٣ .

(٣) برقة – اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وافريقية ، واسم مدينتها (انطابلس) وتفسيره الخمس مدن – معجم البلدان ٢/١٣٣ .

المرحلة الثالثة - أعمال عقبة بن نافع اثنـــاء ولايته الثانية ٦٢ - ٦٣ هـ . وهي المرحلة الحاسمة في الصراع من أجـل فتح افريقية كلها .

لقد كان مسرح المغرب العربي (أو ما يطلق الغرب عليه اسم افريقية الشمالية) هو المسرح الوحيد والاساسي لنشاط عقبـة ابن نافع ، ولهذا قد يكون من المفيد التعرض لطبيعة هذا المسرح الجغرافية قبل الانتقال الى الموقف العام خلال فترة ولاية عقبة ابن نافع .

الطبيعة الجغرافية لمسرح عمليات عقبة بن نافع

تتميز الطبيعة الجغرافية بأنها اكثر العوامل ثباتاً واستقراراً في مجموعة العوامل المؤثرة على الحرب ومسيرة الاعمال القتالية ، ولقد تناقصت أهمية العامل الجغرافي الى حد بعيد بسبب التقدم العلمي والتقني واعتماد الجيوش على التحركات الآلية (الميكانيكية) الارضية والجوية . وعلى هـذا فعند التحدث عن التحركات من برقة مثلاً الى طنجة على الاطلسي فانه من الضروري رغم ثبات العامل الجغرافي ، تصور تلك المسيرة الطويلة والشاقة التي قطعها عقبة بن نافع خلال تحركاته القتاليـة ، مع الاخذ بعين الاعتبار ضرورات التحرك في شروط أمن دقيقة وصارمة ومع العمل على تأمـين الامداد الاداري للقوات وتوفير الحد الادنى الضروري للشروط الحياتية . وعند ذلك فقط تظهر أهمية العامل الجغرافي

بالنسبة للأعمال القتالية خلال الفترة التي قاد فيهـا عقبة بن نافع جيوش المسلمين لفتح افريقية .

كانت برقة هي القـاعدة المتقدمة في افريقية ، وتشابه في حدودها آنذاك حدود القطر العربي الليبي حالياً » وهي تتألف من هضبة صخرية ورملية تتخللها تلال متوسطة الارتفاع خالية من المجاري المائية الدائمة ، كما تنتشر فيها بعض المنخفضات التي تحولت الى واحات داخلية أشهرهـا واحة جغبوب الواقعة على مسافة قريبـة من الحدود الليبية – المصرية، وهي تنخفض عن مستوى البحر،وكذلك واحة مرزوق اكبر واحات منطقة فزان ثم غدامس عنـد ملتقى حدود طرابلس بحدود المغرب العربي (تؤنس والجزائر ومراكش) . ويفصل بـين هذه الواحات مساحات جرداء ، وفي الجنـــوب هناك مرتفعات تصل حتى ٣٣٠٠ م ، تفصل بين برقة « ليبيا » وبـين السودان الأوسط . وبالامكان تمييز المناطق التالية في سطح برقة « ليبيا » : (أ) السهل الساحلي في منطقة انطابلس « طرابلس » في الغرب وبرقة في الشرق . (ب) المرتفعات الساحلية وتشمل الجبل الأخضر في برقة وجبل نفوسة في طرابلس. (ج) – الهضبة الداخلية – وتسود فيها الكثبان الرملية وبعض الواحات في الشرق «الكفرة» ويتنوع سطحها في الغرب على حـين تظهر في الجنوب واحات فزان ومنخفضاتها « الآجال والشاطىء » ويتميز اقلـيم برقة « ليبيا » بحرارته المرتفعة صيفاً والتي تصل حتى ٥٠ درجة في

فزان ، وتنخفض درجة الحرارة هذه شتاء الى أقل من الصفر ، فالسعة الحرارية كبيرة وتقل كلما اتجهنا شمالاً . ويظهر العرض السابق للطبيعة الجغرافية ان محور التحرك الاجباري هو المحور السهلي الموازي لساحل البحر . وهذا المحور هو الذي كانت تتبعه قوات العرب المسلمين عند تقدمها من مصر الى المغرب العربي . اذا تجاوزنا بعد ذلك اقليم برقة فاننا نصل الى المغرب العربي « تؤنس والجزائر والمغرب وموريتانية » والتي أطلق عليها ابن خلدون اسم « جزيرة المغرب » بسبب حدودها الطبيعية العازلة والواضحة ففي الجنوب الصحارى وفي الشمال والغرب البحر الأبيض المتوسط « بحر الشام » والمحيط الأطلسي. وسنأخذ هنا بالوصف والتسمية الحديثين لسببين أولهما سهولة المأخذ والفهم، وثانيهما عدم الاختلاف الكبير بين الطبيعة الجغرافية الحالية والطبيعة القديمة زمن الفتوحات ، ذلك أنه على الرغم من أن القشرة الأرضية في المغرب العربي لا زالت غير مستقرة وهي تتعرض باستمرار للهزات الأرضية والزلازل ، الا ان هذه الاضطرابات الطبيعية لم تتمكن من تغيير الطبيعة الجغرافية تغييراً كبيراً .

يشكل المغرب العربي اقليما طبيعياً واضحاً ضمن حدود الوطن العربي ، ويشغل هذا الاقليم مع الصحراء الكبرى الغربية القسم الشمالي الغربي من القارة الافريقية ، ويمتد المغرب العربي بطول ألفي ٢٠٠٠ كيلومتر تقريباً من خليج قابس حتى المحيط الأطلسي

وتؤلف الصحراء القسم الجنوبي منها وهو الذي يصلها بأفريقية المدارية . ورغم هـذا الاتصال الجغرافي فان طبيعة الصحراء تشكل أداة فصل اكثر مما تشكل وسيلة اتصال في حين يشكل البحر وسيلة اتصال اكثر مما يكون عائقاً للاتصال. ويقع المغرب العربي بين درجتي العرض ١٦° و ٣٧° شمالاً وبين درجتي الطول ١٣° غرب غرينيتش الى ٩° شرق غرينيتش وتبلغ مساحته ٤ ملايين كيلومتر مربع . ويعتـبر المغرب العربي طبيعياً منطقة التقاء بين قارتي أفريقية وأوروبة عبر البحر المتوسط ومضائقه، كما تعتبر بشرياً منطقة التقاء بين عالم الوطـن العربي وبين العالم الأفريقي . أما من ناحية التضاريس فيتميز المغرب العربي بوجود منطقتين كبيرتين « منطقـة شمالية بحرية ومنطقة جنوبية صحراوية » وتعتبر المنطقة الشمالية بلاداً جبلية بالدرجة الأولى يبلغ ارتفاعها الوسطي « ٧٠٠ م » لكن تضاريس هذه المنطقة الجبلية تختلف من مكان الى آخر ذلك لأنها ملتقى السلاسل الجبلية الالتوائية الحديثة بالكتل القديمة وهي على العموم مجزأة، تقطعها الوديان والمنخفضات وتندمج الكتلة الجبلية في الضهرة التونسية فتؤلف كتلة واحدة . ويمكن بصورة عامة تميـيز المناطق التالية :

١ ـ السهول الساحلية : وهي تتسع عرضاً في تؤنس وفي المغرب حيث تشكل سهـول « السوس والشاوية والغرب » ثم تضيق وتنعزل في الجزائر لتشكل سهولاً ضيقة ابرزها « سهل

المتيجة » . هـذا وبينما يأخذ الساحل الشمالي شكل الساحل الصخري ليكون عدداً من الخلجان الصخرية مثل خليج تونس وخليج بنزرت فانه يأخذ شكل الساحل الرملي الذي تقل فيه التعاريج سواء بالنسبة لساحل الأطلسي أو بالنسبة لساحل تونس الشرقي .

٢ ــ الاطلس التلي ، ومعظمه كلسي أثرت فيـه عوامل التعرية ، فيتألف من عدة سلاسل ساحلية « الريف ، القبائل ، خمير » وداخلية مثل جبال وارسونيس وبيبان في الجزائر ، وجبـال الاطلس الاوسط في مراكش التي ترتفع اكثر من ٣٠٠٠ م .

٣ ــ الاطلس الصحراوي ، وهو مجموعة من الطيات الملتوية تفصل بعضها عن بعض محـاور اتصال وممرات كثيرة ، وأشهر هذه الجبال « القصور » والتي تنتهي بجبال الاوراس في الشرق ، وفيها أعلى قمـة في الجزائر « ٢٣٠٠ م » والضهرة التونسية التي تمتد نحو الرأس الطيب ، اما في الغرب فترتفع جبـال الاطلس الاعلى التي يزيد ارتفاع قمتها العليا في جبل طوبقال الى ٤١٦٥ مترا ، وهي أعلى قمة في الوطن العربي .

٤ ــ الهضاب العليا : « او هضاب الشطوط » وهي تمتد بين الاطلس التلي والاطلس الصحراوي لتشكل في المغرب « المائدة المراكشية » على حين انها تشكل في الجزائر «السهوب العليا» التي تضيق من الغرب الى الشرق كما يقل ارتفاعها ويتناقص كلما

اتجهنا من المغرب في اتجاه تونس . وتوجد داخل هذه الهضاب منخفضات مغلقة تحوي مياهاً مالحة تدعى « الشطوط » وهي تقابل ما يعرف في بلاد الشام باسم « السبخات » . كما يوجد سواء داخل الهضاب العليا أو بين الجبال بعض الاحواض التي تشكل مواضع ذات تربة زراعية مثل «سهل طولا » في المغرب. وبصورة عامة ، فان تضاريس المغرب العربي متميزة بتقطعها وارتفاعها لهذا فانها تعيق حركة المواصلات، وعادة ما تقتصر محاور التحرك على الممرات الطبيعية كالمضايق الجبلية والاودية النهرية وابرزها ممر تازا بين جبال الريف والاطلس الاوسط، وهو الذي يصل بين المغرب والجزائر، وكذلك وادي المجردة الذي يصل بين الجزائر وتونس. وتأتي بعد ذلك « التضاريس الصحراوية » حيث تشغل صحراء المغرب القسم الغربي من الصحرء الكبرى، وحدود هذه الصحراء نباتية بالدرجة الاولى . ففي الشمال تبدأ عند السفوح الجنوبية لجبال الاطلس الصحراوي، وفي الجنوب تنتهي عند ظهور اشجار الدوم والصمغ « وتدعى منطقة الساحل » أي ابتداء من خط الامطار ١٠٠ مم ، وتتميز الصحراء الكبرى بصخورها المتبلورة القديمة حيث نجد فيها «الحماد الصحراوي » وهي هضاب حجرية واسعة تحوي طبقات مائية جوفية ، وتحيط بالحماد مرتفعات صخرية تدعى « جبلاً أو ضهرا » كما يشرف الحماد على منخفضات ذات مياه مالحة « سبخة » او مياه عذبة « دايا » . وبالامكان التمييز في الحماد الصحراوي بين «الرق» وهي الصحارى الحصوبة الخالية تماماً من الماء مثل تانزروفت وكذلك « العرق»

وهي الصحارى الرمليةالتي ترتفع فيها الكثبان الكبيرة والعالية وفيهـا بعض الآبار ، و « الكتل الجبلية » ومن اهمهـا جبال الاحجار « ٣٠٠٤ م » ذات الصخور البلورية والبركانية . هـذا ويمكن تقسيم تضاريس الصحراء الى قسمين ابتداء من خطوط مدينة الجزائر . فغرب هذا الخط تمتد الصحراء المنخفضة ، وفي شرقه تمتد الصحراء المرتفعة .

المياه في المغرب العربي: تعتبر بلاد المغرب العربي فقيرة بالمياه السطحية عامة ، اذا استثنيت بعض الانهـار الغزيرة أمثال نهر السبو ونهر أم الربيـع ، وتدعى مجاري الميـاه بالاودية ، وهي عبارة عن سيول متقطعة تشبه الانهـار الساحلية في بلاد الشام « سوريا ولبنان وفلسطين » وتحمل عند فيضانها كميات كبيرة من اللحقيات « الطمي » هذا وان الكثير من هـذه الاودية لا تصل الى البحر بـل تنحدر نحو الصحراء لتضيـع في الاحواض المغلقة . ومن انهـار الجزائر الهامة نهر الشليف وفي تؤنس نهر المجردة . وتوجد في الصحراء أودية جافـة مما يدل على ان الصحراء عرفت مناخاً رطباً فيما مضى ، كما ان هـذه الصحراء غنية بالمياه الجوفية « الآبار » وقـد كانت هذه الآبار هي المورد الوحيد للقوافل عند تحركها في الصحراء .

الجغرافيا البشرية في أفريقية عشية الفتح

هناك تشابه كبير في الطبيعة الجغرافية بين المشرق العربي والمغرب العربي ، فـكان من الطبيعي أن يكون هناك ثمة تشابه

ايضاً في التكوين السكاني فقد كان المغرب العربي موطناً لقبائل حملت بمجموعها اسم « البربر » ، وكانت هذه القبائل عشية الفتح تنقسم الى قسمين ، قسم تجاوز مرحلة التنقل والترحال ، مما يميز حياة البداوة، واستقر في السفوح المزروعة والسهول الساحلية ، وقسم لا زال يعيش حياة البداوة وموطنهم الصحارى والواحات جنوب البلاد وشرقها . ولم تكن صلة القربى ووشائج النسب منفصلة بين هؤلاء واولئك ولكن طبيعة حياة الاستقرار والاحتكاك الدائم بين القبائل البدوية المستقرة قد جعلتهم اكثر استعداداً لتقبل التفاهم مع قوات الغزو القادمة من وراء البحر « كالرومان والبيزنطيين والفندال » وقد أفاد الرومان وورثتهم البيزنطيون من هذه الظاهرة فاستعانوا ببربر السهول على بربر الجماد لتأمين حماية مصالحهم ولاشراكهم في الدفاع عن المواقع البيزنطية والحصون التي أقاموها بصورة خاصة في المنطقة الساحلية . وخلال مرحلة الاحتكاك الطويلة حصل التزاوج بين الطرفين فنشأ عن هذا التزاوج عرق جديد عرف باسم « الأفارقة » وهم سكان البلاد الأصليون من المولدين ، وقد اعتنق اكثرهم الديانة المسيحية التي انتشرت بصورة خاصة بين بربر الساحل او البربر المتحضرين . أما بقية البربر فكانوا يدينون بالوثنية أو المجوسية ، وكان هذا الفارق الديني كثيرا ما يسبب الصدام بين البربر بعضهم مع بعض . وعلاوة على سكان البلاد الاصليين فقد كانت هناك اقليات يهودية يعود اكثرها الى ايام اضطهاد الرومان حيث تسبب الاضطهاد في فرار هؤلاء الى المغرب وعملوا هناك

على نشر الدعوة بين البربر فتكونت اقلية يهودية ، بعضها مهاجر وبعضها من اهل البلاد الاصليين .

كان البربر ، سكان البلاد الاصليون مقاتلين أشداء، يتشابهون مع العرب في عدد من الصفات المشتركة حتى ظن بعض المختصين من علماء انساب العرب ان هناك ثمة قرابة ونسابة بينهم وبين القبائل العربية . وكان هذا التشابه في التكون الطبيعي عاملاً من العوامل التي ميزت الصراع في البداية بالقسوة ، ثم ساعد ايضاً في الاندماج مع العرب وتقبل دينهم بمثل الحماسة التي حمل فيها العرب لواء الاسلام .

كان المغرب العربي عشية الفتح تحت حكم الروم «البيزنطيين» ، ولم تكن العلاقة بين الروم وبين السكان البربر جيدة باستمرار ، وكان السبب في ذلك هو كثرة المغارم التي فرضها الروم على سكان البلاد لتلبية متطلباتهم وتأمين احتياجاتهم . ولم تكن افريقية البيزنطية تشمل المغرب كله ، من حدود مصر الى المحيط ومن البحر الى قلب الصحراء ، وانما كانت شريطاً ضيقاً يمتد مع الساحل ويضم برقة وطرابلس وتونس وجبال الاوراس ويضيق هذا الشريط حتى ينتهي عند طنجة وسبتة حيث تبدأ هناك منطقة نفوذ دولة القوط « الاندلس » والتي كان يحكمها حاكم من قبل القوط . وكان حاكم افريقية مطلق الصلاحية في استخدام جميع الوسائل لتأمين متطلبات « القسطنطينية » وكانت البلاد مقسمة إلى مناطق عسكرية يحكم كل منطقة قائد عسكري .

وكانت هـذه المناطق تضم تحصينات ومواقع عسكرية منعزلة « ليمات Limes » تصل بينها شبكةمن طرق المواصلات ولكن هذه التحصينات والمواقع لم تكن على درجة كافية لمقـاومة الهجمات المنظمة القوية وانما كانت تكتفي لرد الغزوات الضعيفة مما يحمل على الاعتقاد بأن واجبها الاول هو ردُّ الغزوات والهجمات البربرية التي كان يقوم بها أهل البلاد بـين فترة وأخرى .

الموقف العام بعد الفتح

انطلقت جيوش العرب المسلمين لنشر رسالة الاسلام في عهد الخليفة الاول ابو بكر الصديق رضي الله عنه ، وتحققت فيعهده أول بواكير النصر في معركة اليرموك الخـالدة ، وتوفي ابو بكر لعام ١٣ هـ - ٦٣٤ م ، فتابع الخليفة الثـاني أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه اعمال الفتوح ، فتم في عهده فتح الشام والعراق ومصر . وكان الخليفة عمر ينطلق في سياسته من مبدأ تحقيق التوازن بين قوة العرب المسلمين وبين حجم الفتوحات ، ونظرا لعدم التكافؤ بين حجم قوة العرب المسلمين القليلة وبـين حجم البلاد الواسعة التي تم فتحها . فقد أصدر أوامره بايقـاف أعمال الفتح ، وحجز قوات المسلمين شمالاً عنـد حدود جبل طوروس وشرقـاً عند حاجز نهري دجلة والفرات وغرباً عند حدود الصحراء الفاصلة بين برقة وبين افريقية . وخلال هـذه

الفترة ، انصرف ولاة المسلمين وقادتهم الى بنـاء المجتمع الجديد وتأمين قاعدة انطلاق ثابتة بحيث يستطيع المسلمون بعدهـا « **الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة** » لمتابعة الفتوح. مستفيدين في ذلك من قوة الرجال الذين انضموا حديثاً الى الاسلام وتحميلهم واجب نشر رسالة الاسلام وتعريف الدنيا بها .

كان نشر رسالة الاسلام يصطدم شمالاً بقوة الدولة البيزنطية التي لم تستسلم رغم ما لحق بها من هزائم قاسية ، وكان نشر رسالة الاسلام يصطدم شرقاً بقوة الدولة الفارسية التي تابعت تحدياتها للمسلمين واستمرت في التحريض ضدهم فكان أن اصدر الخليفـة عمر اوامره الى قادة المسلمين بالانسياح في بلاد فارس ، فكانت معركة فتح الفتوح « نهاوند » عـام ٢١ هـ — ٦٤١ م ، وفي اقل من ثلاثة اعوام كانت قوات العرب المسلمين قد احاطت بالهضبة الفارسية وأزالت الدولة ،وأخذت في تغيير معالم المجتمع الفارسي وفي نفس السنة التي وقعت فيها معركة فتح الفتوح . كان عمرو ابن العاص قد استقر في مصر وتوقف عنـد برقه تنفيذاً لأوامر امير المؤمنين عمر ، ولكن الدولة البيزنطية لم تتوقف عن متابعة اعمالها العدوانية فقامت بتنفيذ عملية انزال بحري في الاسكندرية « لعام ٢٥ هـ — ٦٤٥ » .

كان والي الشام ،معاوية بن أبي سفيان قد نجح في ضبط الروم ، عن طريق استراتيجية الردع والهجمات الوقائية ضدهم باستمرار وذلك باستخدام قوة الصوائف والشواتي وتحصين الثغور ، وكان

قد استأذن الخليفــة عمر بركوب البحر حتى يستطيـع ردع قوة الروم البحرية، وحتى يحرم البيزنطيين من مجالهم الحيوي ويمنعهم من الاتصال بافريقية ، ولكن الخليفة عمر منعه من ذلك خشية على المسلمين « وتحقيقاً لمبـــدأ الاقتصاد في القوى » فعندما تولى خلافة المسلمين امير المؤمنين عثمان بن عفان « ٢٤ – ٣٤ هـ ، ٦٤٤ – ٦٥٤ م »عاود معاوية بن أبي سفيان يطلب ركوب البحر ، فأذن له الخليفة ، وبدأ معاوية ببناء الاسطول ، فتشكلت قوة ردع بحرية استطاعت ان تفرض وجودها على مراحل . ونجحت بفضل تنسيق التعاون بين الشام ومصر في ان تحقق سيطرتها على القسم الشرقي من بحر الشام . فاضطر الاسطول البيزنطي الى نقل نشاطه بعيداً في اتجاه الغرب للابقاء على الاتصال مع مجاله الحيوي الوحيد المتبقي له وهو افريقية . وكان ذلك بصورة خاصة بعد معركة ذات الصواري . ولقد استطاع هذا الاسطول في الواقع القيام بدور كبير في تنفيذ سياسة الدولة البيزنطية للكيد للمسلمين والنكاية بهم . وكان ممـا يساعده على ذلك وجود قوى مؤيدة للدولة البيزنطية ، وكان ذلك أمراً طبيعياً بسبب الاتصال الطويل والتعامل القديم بين الدولة الرومانية وبين اهل افريقية . فكان حتماً على المسلمين العمل طويلاً حتى تزول رواسب هيمنة البيزنطيين من نفوس السكان الافارقة .

الموقف الخاص للدولة الاسلامية

« نصر الله عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده »

وخفقت رايات الاسلام في أقل من ربع قرن من الهجـرة ما بين حدود الهند شرقاً وبين حدود أفريقية غرباً . وكان لا بد لهذه المسيرة السريعة من أن تـترك جيوباً للمقاومة تضم في صفوفها الحاقدين على العرب المسلمين، وكان من الطبيعي ان تستطيع هذه الجيوب اجتذاب الطامحين والطامعين على حـد سواء من العرب المسلمين أنفسهم ، وُخيّل لبعض هـذه الجيوب انها تستطيع عن طريق التفتيت الداخلي الوصول الى ما لم تستطع بلوغه عن طريق الهجمات الخارجية والمجابهات المسلحة في ميادين القتال ، فكان مقتل أمير المؤمنين عمر ثم الخليفة عثمان رضي الله عنهما – وكان لليهودي عبدالله بن سبأ – قسط كبير في الفتنة ضد عثمان [1] .

---

(١) عبد الله بن سبأ ، يهودي من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، أسلم زمن عثمان ولما يدخل الايمان في قلبه ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحـاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ، فأخرجوه حتى أتى مصر . فاعتمر فيهم . وأخذ في التحريض على أمراء المسلمين ، وبث دعاته ، وكاتب من كان استفسد في الامصار وكاتبوه ، ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وجعلوا يكتبون الى الامصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر اخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الارض اذاعة ، وهـم يريدون غير ما يظهرون ، ويسرون غير مـا يبدون ، فشاعت الفتنة ، وكانت المؤامرة لقتل عثمان . (انظر تاريخ الطبري – ذخائر العرب – ٤/٣٤٠ – ٣٩٦ وكذلك الكامل في التاريخ لابن الاثير – دار الكاتب العربي ٣/٧٧ – ٩٠) . (وانظر الفتنة ووقعة الجمل لسيف بن عمر – دار النفائس) .

ووقعت الفتنة الكبرى وتمزقت وحدة العالم الاسلامي السياسية. واستمر هذا التمزق السياسي حتى عام الجماعة «٤٠ هـ - ٦٦٠م» وشهد معاوية في عهده نوعاً من الاستقرار ساعده على ضبط الروم والكيد لهم. ولكن الاضطرابات عادت الى الظهور في عهد يزيد. وحتى حين تولى عبد الملك بن مروان امارة المسلمين، فعادت للعالم الاسلامي وحدته السياسية، واستطاع المسلمون معاودة الفتوح.

كان لانقسام وحدة العالم الاسلامي السياسية، وظهور الثورات وأعمال التمرد انعكاساتها الخطيرة على الموقف الخاص في الجبهتين الشرقية « خراسان » والغربية « افريقية » ذلك أن سكان هذه الاقاليم كانوا حديثي العهد بالاسلام، وكان خضوعهم للعرب المسلمين بمثابة خضوع للقوة، فاذا عرفوا في العرب المسلمين ضعفاً، أظهروا تمردهم، وان اعمال التمرد والثورات المضادة تظهر « التواقت » الواحد، سواء بالنسبة لحدوث أعمال التمرد مع ظهور الثورات الداخلية، أو حتى بالنسبة لترافق أعمال التمرد هذه في خراسان مع مثيلتها في افريقية. وكان مما يزيد الموقف خطورة على الجبهتين وجود قوة ممثلة بالدولة البيزنطية خاصة، تضطلع بدور المحرض لاندلاع الثورات المضادة، وتقوم بتغذيتها ودعمها، بل انها كانت تتجاوز ذلك في بعض الاحيان فتحاول تهديد قاعدة الدولة الاسلامية ذاتها في الشام « وبصورة خاصة في عهد معاوية، وعهد عبد الملك بن مروان » حيث وصلت قوات الروم وأنصارهم الى قرب دمشق مما دفع امراء

الامويين لدفع جزية محددة اسبوعياً حتـــى يستطيعوا التفرغ لقمع الثورات المضادة.وهنا تظهر نقطة حاسمة ذات علاقةوثيقة بظاهرة التمرد سواء في خراسان أو في أفريقية وهــذه النقطة تكمن في سياسة الفتوحذاتها وهي «الهدف من الفتوح »والاسلوب الذي اتبعه قادة العرب المسلمين لتحقيق الهدف. لقد كان **الهدف الاول** هو نشر الدين الاسلامي ، ولهذا فقد كان الاسلوب المتبع قبل كل اشتباك اجراء اتصال يـــتم فيه طرح خيارات لتجنب القتال « الذي كتب على المسلمين وهو كره » وهذه الخيارات هي حسب ترتيب الأفضلية « الدخـــول في الاسلام ، أو دفع الجزية ، أو الحرب » وكثيراً مـــا كان الطرف المقابل للعرب المسلمين يقبل الخيار الاول أو الثاني ، ويكتفي المسلمون عندها بترك ادارة البلاد وحكمها لأهلها ، مما كان يغري ضعاف النفوس ممن لم يقر الاسلام في قلوبهم الى اظهار تمردهم ، والنكث بالعهود المقطوعة عندما يجدون الفرصة المناسبة لذلك ممـــا يضطر قادة العرب المسلمين وقوات العرب المسلمين الى خوض حرب بعد حرب وفتح بعد فتح حتى استقر الامر في النهايـــة وتشكلت قاعدة العرب المسلمين القوية في الاقاليم كلها . وعلاوة على ذلك فان قوة العرب المسلمين لم تكن كافية لاقامة حاميات قوية في جميع الاقاليم التي يتم فتحها وكان يتم الاكتفاء ، في كثير مــن الاحيان بترك عــدد قليل واجبهم الاول التعريف بالدين الاسلامي ونشر رسالة الاسلام . فكان شأن من لا يخضعون الا للقوة الافادة من هذه الظاهرة ، واستثمار ابتعاد قوة العرب المسلمين لاعلان التمرد

المرة بعد المرة .

يظهر العرض السابق مدى التفاعل في العوامل التي كان لها دورها في التأثير على مسيرة الفتوحات وعلى دور القادة عند اتخاذهم لقراراتهم ومواقفهم ويمكن ايجاز هذه الاحداث بالنسبة لجبهة أفريقية على النحو التالي :

	السنة الهجرية	السنة الميلادية	موجز الاحداث
١	١١ – ١٣	٦٣٢ – ٦٣٤	خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه .
٢	١٣ – ٢٤	٦٣٤ – ٦٤٤	خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
٣	١٩	٦٤٠	فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص .
٤	٢٢	٦٤٢	فتح طرابلس الغرب « انطابلس » وبرقة .
٥	٢٤ – ٣٤	٦٤٤ – ٦٥٤	خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه .
٦	٢٥	٦٤٥	انتفاض الاسكندرية وغزو الروم لها .
٧	٢٦	٦٤٦	عزل عمرو بن العاص وتعيين عبد الله بن سرح لولاية مصر .

	السنة الهجرية	السنة الميلادية	موجز الاحداث
٨	٢٨	٦٤٨	غـــزو المسلمين لجزيرة قبرص .
٩	٣١	٦٥١	موقعة «ذات الصواري»
١٠	٣٤ — ٤٠	٦٥٤ — ٦٦٠	خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعهـــد الفتنة الكبرى .
١١	٣٦	٦٥٦	وقعة الجمل .
١٢	٣٧	٦٥٧	وقعة صفين .
١٣	٣٨	٦٥٨	استيلاء عمرو بن العاص على مصر ومقتل محمد بن أبي بكـــر بن الصديق والي مصر للخليفة علي .
١٤	٤٠ — ٦٠	٦٦٠ — ٦٧٩	خلافة أمـير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان .
١٥	٥٤	٦٧٣	غزو جزيرة أرواد .
١٦	٥٩	٦٧٨	حصار القسطنطينية .
١٧	٦١ — ٦٤	٦٨٠ — ٦٨٣	حلافة يزيد بن معاوية .
١٨	٦١	٦٨٠	مقتل الحسين في كربلاء.
١٩	٦٢	٦٨١	الفتنة في خراسان — وخروج كسيلة فـــي أفريقية .

شهد عقبة بن نافع فتح مصر تحت لواء عمرو بن العـاص ، واقام بها . وفي سنة ٢١ هـ بعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع فافتتح زويلة صلحاً ، وصار ما بـين برقه وزويلة سلم للمسلمين . وكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب يعلمه « انه قد ولـّى عقبة بن نافع الفهري المغرب ، فبلغ زويله ، وان من بين زويله وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم ، قد ادّى مسلمهم الصدقة ،وأقرّ معاهدهم بالجزية ، وانه قد وضع على زويلة ومن بينه وبينها مـا رأى انهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعاً ان يأخذوا الصدقـة من الاغنياء فيردوها على الفقراء. ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل الى مصر ، وان يؤخـذ من ارض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم » .

وفي السنة التالية « ٢٣ هـ — ٦٤٣ م » سار عمرو بن العاص من مصر الى برقة ،ثم سار الى طرابلس الغرب فحاصرها شهراً ، فلم يظفر بها وكان قد نزل شرقيها ، فخرج رجل من بني مدلج يتصيد في سبعة نفر وسلكوا غرب المدينة ، فلمـا رجعوا اشتد الحر عليهم ،فأخذوا جانب البحر ،ولم يكن السور متصلاً بالبحر وكانت سفن الروم في مرساها مقـابل بيوتهم ، فرأى المدلجي واصحابه مسلكاً بين البحر والبلد ، فدخلوا منه وكبروا ، فلم يكن للروم ملجأ الا سفنهم لأنهم ظنوا ان المسلمين قـد دخلوا البلد ، ونظر عمرو ومن معه فرأى السيوف في المدينة ، وسمع

الصياح فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم البلد ، فلم يفلت الروم الا بما خف معهم في مراكبهم ، وكان أهل حصن سبرة قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس ، فلما امتنعوا عليه بطرابلس أمنوا واطمأنوا فلما فتحت طرابلس، جند عمرو عسكرا كثيفاً وسيره الى سبرة ، فصبحوها وقد فتح اهلها الباب واخرجوا مواشيهم لتسرح لأنهم لم يكن بلغهم خبر طرابلس، فوقع المسلمون عليهم، ودخلوا البلد مكابرة وغنموا ما فيه، وعادوا الى عمرو. فرجعوا جميعاً الى برقة . وفي سنة « ٢٥ هـ — ٦٤٥ م » خالف أهل الاسكندرية ونقضوا صلحهم ، وكان سبب ذلك ان الروم عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية ، وظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الاسكندرية عن ملكهم ، فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح فأجابوهم الى ذلك فسار اليهم من القسطنطينية جيش كثير ، فأرسوا بها ، واتفق معهم من بها من الروم، ولم يوافقهم المقوقس « حاكم مصر اثناء الفتح» بل ثبت على صلحه مع المسلمين ، فلما بلغ الخبر الى عمرو بن العاص ، سار اليهم ، وسار الروم اليه ، فالتقوا ، واقتتلوا قتالاً شديدا فانهزم الروم وتبعهم المسلمون الى ان ادخلوهم الاسكندرية، وقتلوا منهم في البلد مقتلة عظيمة . ثم ان عمرو بن العاص أمر بهدم حصون الاسكندرية وسورها فهدمت[1] وحين كان عمرو

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير ــ احداث ٢٣ و٢٥هـ . والبلاذري ٢٢٦ .

ابن العاص على مصر كان عقبة على رأس المسلمين في برقـــة . وحين عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر سنة خمس وعشرين وعقد عثمان لعبد الله بن سعد بن ابي سرح على مصر كلها مضافاً للصعيد وغيره ، أقر ابن ابي سرح عقبة على منصبه قائداً لحامية « برقة » . وسار عبد الله بن سعد ومن خرج معه حتى قطعوا ارض مصر ووطئوا ارض افريقية، في جيش كثير عدتهم، عشرة آلاف من شجعان المسلمين، فصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدموا على دخول افريقية والتوغل فيها لكثرة اهلها . ثم ان عبد الله بن سعد أرسل الى عثمان يستأذنه في غزو افريقية ، والاستكثار من الجموع عليها وفتحها فاستشار عثمان من عنده من الصحابة ، فأشار اكثرهم بذلك، فجهز اليه العساكر مـــن المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة ، فسار بهم عبد الله بن سعد الى افريقية، فلما وصلوا الى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ، وكانوا بهـــا ، وساروا الى طرابلس الغرب، فنهبوا من عندها من الروم ، وسار نحو افريقية وبث السرايا في كل ناحية وكان ذلك في سنة ٢٦ هـ « ٦٤٦ م » ثم ان عبد الله بن سعد بن أبي سرح عاد من افريقية الى مصر ، وكان مقامه فيها سنة وثلاثة اشهر وبقي عقبة بن نافع على ولاية برقة واستقر له الامر بعد ان قتل ملك افريقية من قبل الروم واسمه «جرجير» وكان كل ملك من ملوك النصارى من افريقية ومصر والاندلس وغير ذلك يؤدي الخراج الى هرقل ملك القسطنطينية. فلما صالح أهل افريقية عبد الله بن سعد أرسل هرقل الى أهلها بطريقاً له،

وأمره ان يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون ، فنزل البطريق في قرطاجنة ، وجمع أهل افريقية وأخبرهم بما أمره الملك، وكان قد قام بأمر افريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم فطرده البطريق بعد فتن كثيرة فسار الى الشام وبه معاوية وقد استقر له الامر،فوصف له افريقية وطلب ان يرسل معه جيشاً. فسير معاوية بن ابي سفيان جيشاً بقيادة معاوية ابن حديج السكوني ، ومضى ابن حديج فوصل الى افريقية وهي نار تضطرم وكان معه عسكر عظيم، فنزل عند قمونية « وهي مدينة بافريقية كانت موضع القيروان » وارسل البطريق اليه ثلاثين الف مقاتل ، فلما سمع بهم معاوية ، سير اليهم جيشاً من المسلمين فقاتلوهم فانهزمت الروم وحصر حصن جلولاء ، فلم يقدر عليه ، فانهدم سور الحصن فملكه المسلمون وغنموا ما فيه . وبث السرايا فسكن الناس وأطاعوا وعاد معاوية بن حديج الى مصر .

تلك هي الفترة الاولى لحياة عقبة بن نافع في افريقية، أمضى خلالها زهاء ٢٠ عاماً كقائد لحامية برقة « ٢١ – ١٤ﻫ،٦٤١ – ٦٦١ م » ومن الملامح المميزة لهذه الفترة أن عقبة كان يلتزم فيها **اسلوب الدفاع ، وبذلك كانت برقة بمثابة القاعدة المتقدمة المسؤولة عن حماية الجبهة الغربية لمصر** ، ومما كان يزيد من أهمية هذه القاعدة ، نشاط الروم « البيزنطيين »بصورة مستمرة ومحاولاتهم المحافظة على صلاتهم التقليدية مع أهل البلاد والابقاء على مصالحهم . ولقد تميزت هذه المحاولات بالشراسة والتصميم

العنيد فقد كانت المحاولات في حد ذاتها بمثابة صراع « حياة أو موت » بالنسبة لبيزنطة بعد ان انتزع منهـــا مجالها الحيوي في الشام وحصرت في حدود ما وراء طوروس فلم يبق منها سوى البحر – وما وراء البحر – وفي هذا المجال أيضاً . بدأ المسلمون في إحكام الطوق حول الدولة البيزنطية عندما بدأ معاوية بن ابي سفيان في إنشاء اسطول للمسلمين ، وأخذ في الهيمنة على الجزر البحرية، جزيرة بعد جزيرة . ولكن الوقت كان لا يزال مبكراً لفرض سيطرة المسلمين على البحر الابيض المتوسط كله وتحويله الى « بحر للشام » ومنطقة نفوذ للمسلمين لا ينازعهم فيها منازع. ولهذا فان واجب عقبة الدفاعي لم يكن بالواجب السهل ، وهذا ما يوضح حرص ولاة المسلمين جميعاً وحكامهم على إبقاء عقبة في هذا المركز القيادي،فقد تعاقب على حكم مصر « عمرو بن العاص وعبد الله بن ابي سرح ، ومحمد بن ابي بكر ، ثم عمرو بن العاص ثم معاوية بن حديج السكوني » وكلهم لم يفكر في استبدال عقبة بقائد آخر ، ثقة بـــه ، ومعرفة لكفاءته ، وتقديرا لجهده واحتسابه وجهاده . ولقد أفاد عقبة من هذه الفترة لاكتساب خبرة مع أهل البلاد ، والاحتكاك بهم ، ونشر الاسلام بينهم ، واقامة قاعدة قوية وثابتة في « برقة » تكون للمسلمين قاعـــدة انطلاق لهجماتهم وتوغلهم في افريقية وترد عنهم في الوقت ذاته هجمات الروم وانصارهم من اهل البلاد ، ولا حاجة لابراز سبب التزام عقبة باسلوب الدفاع خلال هذه المرحلة ، فالهجوم يتطلب في اول شروطه « توفر تفوق في القوى » ولم يكن هـــذا التفوق

موجودا ، يتأكد ذلك من خلال رسالة عبد الله بن سعد بن ابي سرح الى الخليفة عثمان عندما كتب اليه يستأذنه ويستمده بهدف « الاستكثار من الجموع عـــلى افريقية » . فكان موقف عقبة والحالة هذه الانضمام الى كل قوة تتوغل في افريقية وتقاتل فيها هجومياً. ولا ريب ان دعم عقبـــة لم يكن يتوقف عند حدود الاشتراك مع قواته بالقتال، وانما كان يتجاوز ذلك لتقديم الخبرة والمعلومات المتوافرة مما كان يساعد على تحقيق النجاح في قتـــال المسلمين . هذا من جهة ومن جهة اخرى فان قلة عـــدد العرب المسلمين في برقة ، وعدم تمكن عقبة من القيام بالاعمال الهجومية يظهر واضحاً من خلال عدم رد عقبـــة على قيام بطريق الروم بالاتصال مـــع أهل افريقية ، وتحريضهم ضد المسلمين ، وطرد الحاكم الذي اتفق مع المسلمين مما حمل عقبة على توجيهه الى الشام لطلب الدعم من معاوية ابن ابي سفيان واظهار خطورة الموقف فكانت استجابة معاوية في ارسال جيش بقيادة معاوية ابن حديج السكوني . ووصوله الى افريقية « وهي تضطرم ناراً » فأقام فيها سنة ونيف حتى استتب الأمر للمسلمين .

المرحلة الثانية في حياة عقبة بن نافع القيادية

تبدأ هذه المرحلة – وهي في الواقع امتداد للمرحلة السابقة – مع عام « ٤١ هـ – ٦٦١ م » فقد كان استقرار موقف الدولة الاسلامية بعد عام الجماعة واتفاق المسلمين على حكم معاوية بن ابي

سفيان عاملاً مساعدا لتطوير الاعمال القتالية على الجبهة الغربية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان تصاعد قوة المسلمين في البحر وسيطرتهم على عدد من الجزر كان عاملاً مساعدا ايضاً لتحقيق نوع من الاستقرار « النسبي » . وهناك عامل يأتي في طليعة العوامل جميعاً ، فقد اكتسب عقبة الخبرة اللازمة خلال صراعه الطويل والمرير مع الروم ، كما اصبحت قاعدته في « برقة » قوية ومأمونة بحيث اصبح باستطاعته الاستناد اليها للانطلاق من مواقع الدفاع الى مواقع الهجوم . وهكذا انطلق عقبة في هذه السنة بقوات المسلمين حتى انتهى الى « لواته »[1] ومزاته ، وكانوا قد اطاعوا ثم كفروا فغزاهم عقبة فقتل وسبى ، فتنحوا ناحية طرابلس فقاتلهم عقبة حتى هزمهم ، فسألوه ان يصالحهم ويعاهدهم . فأبى عليهم وقال « انه ليس لمشرك عهد عندنا . ان الله عز وجل يقول في كتابه (كيف يكون للمشركين عهد) ولكن ابايعكم على انكم توفوني ذامتي . « ان شئنا اقررناكم ، وان شئنا بعناكم » . وغزا عقبة « هوارة »[2] فأطاعوا هم ولواته ثم

(١) لواته – من أشهر قبائل البربر ، كانت زمن الفتح الاسلامي تسكن برقة ، وهي من أكبر بطون البربر (البتر) – تاريخ الفتح العربي في ليبيا ١١ – ١٢ – وجمهرة أنساب العرب ٤٩٨ .

(٢) هوارة – اختلفت عليها المصادر العربية فوردت أحيانا (مزاته) وأحيانا (مرافة) وهي بطن من البرانس ، ومن أشهر قبائل البربر . وكان موطنهم زمن الفتح حول طرابلس الى ما يقارب سرت والى قصر ميمون من الجنوب ، وكانت هوارة ظواعن وأهلين (بدو وحضر) – تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١١ – ١٢ و٦٦) والولاة والقضاة ٣٢ .

كفروا ، فغزاهم عقبة فقتل وسبى ، ثم افتتح في سنة « ٤٢ هـ — ٦٦٢ م » غدامس[1] فقتل وسبى . وفي سنة « ٤٣ هـ — ٦٦٣م » افتتح كوراً من كور السودان[2] وافتتح ودان ثانية وهي من برقة وذلك سنة « ٤٦ هـ — ٦٦٦ م » فقد خرج عقبة في هذه السنة حتى نزل « مغداش » من سرت وكانت ودان قد نقضت عهدها الذي عاهدت عليه بسر بن أرطاة سنة ثلاث وعشرين الهجرية ، فترك عقبة جيشه بـ « مغداش » في أرض سرت[3]

(١) غدامس : اسمها البربري القديم (سيداموس) وهي واحة من واحات طرابلس الغرب الصحراوية ، وتقع في الجنوب الغربي من مدينة طرابلس وعلى بعد ٥٠٠ كم· وهي من أقدم المراكز الحضارية في صحراء طرابلس · معجم البلدان ٦/٢٦٨ ·

(٢) كورة : جمعها كور ، والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها اسم الكورة · معجم البلدان ١/٣٦ ·

(٣) مغداش : بلد قريب من سرت في ليبيا · وسرت مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى بها الان ، ويمتد هذا الخليج من مدينة مصراتة الى الجنوب حتى بويرات الحسون ، ثم يتجه شرقا الى العقيلة على مسافة ٥٨٥ ك·م· من مصراتة · ثم يتقوس الى الشمال حتى مدينة بني غازي مسافة ٢٨٥ ك·م· ومدينة بني غازي في الشرق تقابلها مدينة مصراتة في الغرب ويقع خليج سرت جنوب الخط الوهمي الذي يصل بين المدينتين ، وتبعد سرت عن البحر الى الجنوب مسافة أربعة كيلومترات وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس الغرب بنحو ٥٥٤ ك·م· وكانت محاطة بسور من التراب وهي غير سرت المعروفة الان ، لان سرت الحديثة أنشئت في العهد العثماني سنة (١٣٠٣هـ — ١٨٨٥م) — معجم البلدان ٥/٦٢ — تاريخ الفتح العربي في ليبيا ٢٦ و « قادة الفتح الاسلامي — المغرب العربي » اللواء الركن محمود شيت خطاب ١/٩٨ ·

واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي ، وسار اليها في أربعمائة فارس وأربعمائة جمل وثمانمائة قربة ماء ، على كل جمل قربتان لحمل الماء ، فلما وصلها أبى أهلها إلا العصيان ، وعدم الطاعة ، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلداً ، وقبض على ملكهم فجدع أذنه . فقال « لِمَ فعلت هذا بي ؟ » فقال عقبة « فعلت هذا بك أدباً لك ، اذا مسست أذنك ذكرته فلا تحارب العرب » . واستخرج منهم ما كان بسر بن أبي أرطاة فرضه عليهم سنة ثلاث وعشرين الهجرية « ثلاثمائة رأس وستين رأساً من العبيد » . ولما استقر الأمر لعقبة في بلاد ودان [1] سأل عقبة أهلها : هل من ورائكم من أحد ؟ فقيل له « جرمة » [2] فسار اليها ثماني ليال من ودان ، فلما دنا منها دعا أهلها إلى الاسلام ، فأجابوا ، فنزل منها على ستة أميال ، وخرج ملكهم يريد عقبة ، فأرسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغب « تعب حتى أصابه الاعياء » وكان ناعماً ، فجعل يبصق الدم ، فقال له « لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعاً ؟ » فقال عقبة : « أدباً لك ، اذا ذكرته

---

(١) ودان – مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية ويتبعها زلة وهون وسوكنة وما جاورها ويطلق على الكل اسم (بلاد ودان) وكانت ودان زمن الفتح الاسلامي هي القصبة (العاصمة) وتقع ودان في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بمسافة ٧٦٩ ك٠م٠ تقريبا والى جنوب سرت بمسافة ٢٨٠ ك٠م تقريبا ٠ (المشترك وصفا والمفترق صقعا ٤٣٥ ومعجم البلدان ٨/٤٠٥) ٠

(٢) جرمة – اسم قصبة (ناحية أو مديرية) بناحية فزان ، عاصمة بلاد فزان ايام الفتح الاسلامي ٠

لم تحارب العرب » . وفرض عليهـــم ثلاثمائة وستين عبداً .
ومضى عقبة من فوره لانجاز فتح بــلاد « فزان »[١] حتى أتى
على آخرها . ونشر الاسلام في ربوعها ، وكانت هذه أول مرة
دخل فيها العرب بلاد فزان فاتحين . وسأل عقبة أهل « فزان »
هل من ورائكم أحد ؟ فقالوا أهل « خاور » وهو قصر عظيم على
رأس المفازة في وعورة على ظهر جبل — وهو قصبة كاوار . فلما
وصل اليه دعا أهله الى الاسلام فأبوا ، وطلب منهم الجزية فامتنعوا
بحصنهم . فحاربهم وأقام على حصارهم شهـــراً دون جدوى .
وتقدم بجيشه جنوباً لفتح بقية بلاد كاوار ، ففتحها حتى أتى على
آخرها وقبض على ملكهم وقطع إصبعه ، فقال « لم فعلت هذا
بي ؟ » فقال عقبة « أدباً لــــك اذا أنت نظرت الى اصبعك لم
تحارب العرب » . ثم فرض عليهم ثلاثمائة عبد وستين عبداً .
أخضع عقبة أهل خاور ، وفتح بقية بلاد كادار[٢] وافتتح

---

(١) فزان — واحة من واحات طرابلس الجنوبية ، يحدها من الشمال الجبال السود (الهروج) ومن الجنوب جبال التبو وحدود السودان ، ومن الغرب الطريق الذي يصل بين غدامس وغات ، ومن الشرق خط الطول في الدرجة ١٨ . وطولها من الشرق الى الغرب ٩٠٠ كم· ومن الشمال الى الجنوب ٨٠٠ كم· وارتفاعها عن سطح البحر ٥٠٠م تقريبا · وفيها وديان يبلغ انخفاضها في بعض الاماكن ١٥٠ م عن سطح البحر ومساحتها اكثر من ٣٠٠ ألف كيلومتر مربع · قادة الفتح الاسلامي — المغرب العربي ١/٩١ — معجم البلدان ٦/٢٧٤ — ٢٧٥ ·

(٢) خاور — أكبر مدينة في ناحية كاوار وهي عاصمتها (قصبتها) وتقع جنوب فزان · وأما ناحية كاوار . فهي ناحية واسعة بها مدن كثيرة ومياه جارية ونخل كثير · معجم البلدان ٣/٢٩٤ — و٧/٢١٠ ·

عامة بلاد البربر ، وكان في نيته التوغل في افريقية ، وان يمضي قدماً في جوف الصحراء ، فسأل أهل خاور « هـل من ورائكم أحد ؟ » فقـال الدليل « ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة » فانصرف عقبة راجعاً فمر بقصر خاور — الذي كان قـد امتنع عليه في ذهابه — فأعرض عنه ، ولم يحاول الهجوم عليه ومضى بقواته حتى قطع في سيره ثلاثة أيام ، واقام عقبة بمكان اسمه اليوم « ماء فرس » ولم يكن به ماء ، فأصابهم عطش أشفى منه عقبة وأصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين ودعـا الله . وجعل فرس عقبة يبحث بيـديه في الارض حتى كشف عن صفاة ، فانفجر الماء منها ، فجعل الفرس يمص ذلك الماء ، وابصره عقبة فنادى في الناس «ان احتفروا» فحفروا سبعين حفرة قليلة العمق وشربوا واستقوا ، فسمي ذلك المكان لذلك « ماء فرس » .

أمن أهل خاور عندما عرفوا بابتعاد عقبة وجيشه ، ففتحوا مدينتهم ، ووضع عقبة ذلك في تقديره ، فرجع الى خاور من غير طريقه التي كان اقبل منها ، فلم يشعر به أهل خاور حتى طرقهم ليلاً ، فوجدهم مطمئنين قد تمهدوا في أسرابهم ، فاستباح ما في المدينة من ذرياتهم واموالهم وقتل مقاتلتهم . وانصرف عقبة بعد فتح خاور حتى نزل بموضع زويلة « اليوم » ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر وقد جمت خيولهم وظهورهم .

علم عقبة ان غدامس قد تمردت ، وشقت عصا الطاعة ، فسار عقبة بجيشه الى المغرب وجانب الطريق الأعظم « وهو الطريق

الساحلي جنوب جبل نفوسة » وأخذ الى ارض هوارة « ويقال مزاته وهي قبيلة بربرية » فافتتح كل قصر من تلك القصور ومنها قصر ميمون مـــن ناحية الجنوب « جنوب طرابلس الغرب — سرت» ومضى الى «صغر» واسمها الحالي «صغرو»وهي مدينة في شمال المغرب وفي قلب جبال اطلس الوسطى » فافتتح قلاعها وحصونها وقصورها . ثم بعث خيلاً الى غدامس فاستعاد فتحها وتوجه الى قفصه[1] ثم افتتح قسطيلية[2] ثم انصرف الى القيروان بعد أن أزال كل المقاومات والجيوب المناوئة بين برقة والقيروان، فأصبحت هذه المنطقة خالصة للمسلمين .

كانت القوة الاساسية التي اعتمدها عقبة في حربه لا تزيد على ١٠ آلاف مقاتل وبهم دخل افريقية. فانضاف اليه من أسلم من البربر ، فكثر جمعه ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا اذا دخل اليهم امير أطاعوا وأظهر بعضهم الاسلام فاذا عاد الامير عنهم نكثوا وارتد من أسلم. فرأى عقبة ان يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ، ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد ، وأخذ في البحث عن المكان المناسب[3] لا سيما

---

(١) قفصة : بلدة بتونس ، كان لها شأن كبير في عهد الرومان وهي بلدة ليست بالكبيرة ، تقع في طرف تونس من ناحية الغرب ، من عمل الزاب الكبير ، بينها وبين القيروان ثلاثة ايام . معجم البلدان ١٣٨/٧ .

(٢) قسطيلية : احدى بلاد الزاب الكبير بالمغرب ، تقع في أقصى المغرب على حدود الصحراء . معجم البلدان ٨٨/٧ .

(٣) الكامل في التاريخ لابن الاثير ٢٣٠/٣ .

وان قاعدته الأساسية « برقة » قد اصبحت بعيدة عن مسرح عملياته المقبل،وأصبح الموقف الجديد بعد عمليات الفتوح يفترض دفع القاعدة الى الامام لتكون في موقع مناسب وأقرب ما يكون الى قلب المغرب العربي.وكان معاوية بن حديج السكوني قد وضع أساس هذه القاعدة في القيروان الذي كان في مدينة قمونية ولكن هذا الموقع لم يعجب عقبه لأسباب عسكرية بحتة. فقرر تغيير موقع القيروان .

لقد كان موقع قيروان معاوية بن حديج يفتقر الى جودة الموقع الاستراتيجي ، فقد كان في موقع في الوسط الشرقي لافريقية، ولم تكن القيروان في الشمال فتكون جبلية ولا ضاربة في الجنوب فتكون رملية . وكان القيروان منه بجانب سبخة . لقد كان العرب منذ أيام عبد الله بن سعد بن ابي سرح يفضلون النزول بقمونية لأنها بسيط من الأرض ، تتوفر فيها المراعي ، هواؤها جيد وتربتها خصبة ومياهها ثرة وفيرة ولكن مكان قمونية لم يكن صالحاً كقاعدة مأمونة للمسلمين لأن بعض غير المسلمين كانوا يسكنون قمونية مع المسلمين. ونظراً للعلاقة الوثيقة التي لا زالت قوية بين غير المسلمين وبين الروم من جهة ونظراً لحداثة عهد المسلمين الافارقة بالاسلام وعدم استقرار الايمان في قلوبهم من جهة أخرى فقد كان هؤلاء غير المسلمين خطراً لاحتمال استخدامهم كعيون « جواسيس » للروم، ينقلون اليهم أخبارهم ويدلون على عوراتهم « نقاط الضعف فيهم » .

وأراد عقبة ان تكون القيروان بالنسبة للمسلمين محطاً لقوافلهم ومراحاً لعسكرهم فقال لرجاله « ان افريقية اذا دخلها إمام أجابوه للاسلام فاذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله الى الكفر . فأرى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا مدينة تكون عزا للاسلام الى آخر الدهر » فاتفق الناس على ذلك، وان يكون أهلها مرابطين قرب البحر ليتم لهم الجهاد والرباط .

وقال لعقبة بعض اصحابه « قربها من البحر ليكون اهلها مرابطين » فقال لهم، اني اخاف ان يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل، فهو يسير الى ساحل البحر إلى نصف الليل، فيخرج، فيقيم في غارته الى نصف النهار، فلا تدركها منه غارة ابدا . فان كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير فأهلها مرابطون ومن كان على البحر فهم حريس لهم، وهم عسكر معقود الى آخر الدهر، وميتهم في الجنة »، فاتفق رأيهم على ذلك فقال « قربوها من السبخة » فقالوا « نخاف ان تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها في الشتاء وحرها في الصيف » فقال « لا بد لي من ذلك، لأن اكثر دوابكم الإبل، وهي التي تحمل عسكرنا، والبربر قد تنصروا، وأجابوا النصارى الى دينهم، ونحن اذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بد من المغازي والجهاد ونفتح الاول منها فالاول، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غارة البربر والنصارى . فركب الى موضع القيروان اليوم وكان

غيضة كثير الاشجار مأوى الوحوش والحيات ، فأمر بقطع ذلك واحراقه »[1] .

أمر عقبة ببناء القيروان سنة ٥٠ هـ ، وأكمل بناءها سنة خمس وخمسين للهجرة، وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وكان دورها « محيطها » ثلاثة آلاف باع وستمائة باع وكان عقبة في اثناء عمارة المدينة يغزو ، ويرسل السرايا فتغير وتغنم . ودخل كثير من البربر في الاسلام واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا، واطمأنوا على المقام فثبت الاسلام فيها .

كان عقبة خلال هذه المرحلة يدرك بوضوح أهدافه ، فقد

---

(١) في الكامل في التاريخ ٣/٢٣٠ ورياض النفوس ١/٦ ـ ٧ . (ان رجاله قالوا له ـ انك أمرتنا بالبناء في شعاب وغياض لا ترام ، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الارض ، وكان في عسكره خمسة عشر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر ذلك تابعون) فدعا الله عز وجل وجعل اصحابه يؤمنون على دعائه ومضى الى السبخة وواديها ونادى وكان مستجاب الدعوة فقال (ايتها الحيات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ارحلوا عنا فانا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه) فنظر الناس ذلك اليوم الى الدواب تحمل أولادها وتنتقل ، فرآه قبيل كثير من البربر فأسلموا ، ونظر الناس بعد ذلك الى أمر عجب من أن السباع تخرج من الشعاب تحمل أشبالها والذئب يحمل جروه والحيات تحمل أولادها . ونادى عقبة في الناس (ان كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا) فلما خرج ما فيها من الوحش والهوام وهم ينظرون اليها ، نزل عقبة الوادي وأمرهم أن يقطعوا الشجر .

ركز جهده الرئيسي على بناء الجبهة الداخلية ، **لأن** صراعه مع الروم كان يشكل جبهة ثانوية ، إذ كان هـذا الصراع يخرج عن حدود امكاناته : ليدخل في حـدود امكانات الدولة الاسلامية ومقرها دمشق ، **وكان واجبه الاول دفاعياً** يتلخص في تقليص نفوذ الروم « البيزنطيين » وتدمير الروابط بـين الروم وأهل البلاد . ولهذا ركز عقبة جهده لاخضاع حركات التمرد، واتبع في ذلك وسيلتين ، الترغيب عن طريق نشر الاسلام فيكون لأهل البلاد ما للعرب المسلمين ويكون عليهم من الواجبات ما عليهم ، ثم الترهيب باتباع اساليب الحرب النفسية والردع . مع التركيز بصورة خاصة على قادة البلاد لنزع هيمنة الروم من نفوسهم واشعارهم بقوة العرب المسلمين . واذا امكن تجاوز هذه النقطة الحاسمة **فهناك نقطة اخرى موازية لها في الاهمية ومعادلة لها في القوة وهي تحقيق التوازن بين القوى المتوافرة وبين الاهداف المتنوعة** خلال مراحل الصراع المختلفة . ولم يكن تحقيق هـذا التوازن ممكناً لولا توافر الامكانات لتقدير الموقف الصحيح ولولا المعرفة الثابتة بطبيعة مسرح العمليات وموقف السكان من اهل البلاد. لقد التزم عقبة بموقف الدفاع عندما لم تكن لديه امكانات جيدة للهجوم، ثم انطلق لممارسة الاعمال الهجومية وفق امكاناته، ووفق طبيعة مسرح العمليات ، وليس المجال هنا هو مجال دراسة الاساليب العملياتية والطرائق التكتيكية التي طبقها عقبة في عملياته، فهذه لها مجال لاحق عند دراسة فن الحرب عند عقبة بن نافع، ولكن بالامكان هنا التنويه بما يميز المرحلة من توازن بين القوى

والاهداف وهي المعادلة التي تعتبر اساساً لنجاح كل عمل قتالي .

أما النقطة الحاسمة الثالثة ، والمعادلة في الاهمية ايضاً ، **فهي اقامة القاعدة القوية ودفعها كلما تم بناء المجتمع الجديد .** لقد اقام عقبة في برقة عشرين سنة ونيف حتى اصبحت هذه القاعدة هي مركز الاشعاع للاقليم كله والمنطقة بكاملها. وعندما اطمأن عقبة الى قوة قاعدته ، انطلق لبناء قاعدة جديدة، اكثر عمقاً واكثر قوة . ورغم ان هذه الظاهرة مرتبطة بالسياسة العامة والاستراتيجية الثابتة للعقيدة القتالية عند المسلمين . الا انه من الضروري ابرازها هنا كنقطة مميزة في اطار استراتيجية هذه المرحلة . وليست هذه النقاط الاساسية الثلاثة هي كل المنطلقات وجميع المعطيات التي اعتمدها عقبة في حربه والتي ضمنت له الانتصارات الخالدة خلال هذه المرحلة . وقد يكون من الصعب فصل العوامل المذكورة عن السياسة العامة للدولة وعن الاستراتيجية العربية الشاملة خلال هذه المرحلة نظراً للتلاحم الوثيق بين مجموعة العوامل السياسية والاستراتيجية والعملياتية في عقيدة قتالية واحدة تميزت بها العقيدة الاسلامية قبل غيرها مما يفرض العودة اليها عند دراسة فن الحرب في فصل لاحق . ومهما كان عليه الامر ، فان شخصية عقبة القيادية تكمن اساساً في تمثل هذه الاسس والمعطيات والتوفيق بينها وبين الموقف الخاص الذي كان يتميز به مسرح العمليات في المغرب العربي .

كان عقبة من الرواد الاوائل في رحاب الفكر الاستراتيجي العربي ، وهو الفكر الذي كان الاساس لما رفعه العرب المسلمون

من منارات في العلم والادب والفن وفي كل مجال وهي منارات اضاءت الدنيا فأشرق لها الكون .

عقبة والولاء الشخصي

مرت بالعالم الاسلامي بعد مقتل امير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، أزمة حادة هزت المجتمع الاسلامي هزا ،وظهرت قضية الولاء لأحد الحزبين الرئيسيين حزب علي وحزب معاوية، وانتشرت عدوى الولاء الى كل مصر وبلد فمزقت المجتمع وجعلته شيعاً . ولكن بعضاً من الصحابة وقلة من القادة استطاعوا الارتفاع عن مستوى العصبية الحزبية والسمو عن قضية الولاء الشخصي ، بعضهم باعتزال العمل السياسي والابتعاد عن مراكز القيادة وبعضهم بالالتزام بالقضية الاساسية قضية نشر الاسلام والجهاد في سبيله ، وكان هؤلاء وأولئك نفر من القلة يأتي القائد عقبة بن نافع نموذجاً رائدا لهم، **فقد استطاع عقبة رغم جميع العواصف التي اجتاحت عالم المسلمين أن يحافظ على موقعه ، موجهاً وجهه نحو اعداء الاسلام** ، تاركاً ظهره لدولة المسلمين معرضاً عن دنياهم عاملاً من اجل مستقبلهم مؤمناً الحماية لهم . وقد يكون لوجوده في مجابهة أعداء المسلمين ، دور كبير في تحسسه للمسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه والتي حملته على الارتفاع عن مستوى الولاء الشخصي الى مستوى الولاء للقضية . وهكذا بقي عقبة على رأس حامية برقة رغم كل التغيرات التي تعرض لها القادة والحكام والولاة. ولكن ريح التغيير لم تلبث أن

اقتربت من برقة يوم عمل معاوية بن ابي سفيان على تعيين مسلمة ابن مخلد الانصاري لولاية مصر في العـــام ٥٥ هـ مكافأة له على تخصيص سيفه للدفاع عن حكم معاوية ، فقرر مسلمة تعيين مولاه ابو المهاجر دينار لولاية افريقية وعزل عقبة عنها . وعندمـــا اتخذ مسلمة قراره هذا قيل له : « لو أقررت عقبة ، فان له جزالة وفضلا » فقال مسلمة « إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نيل ، فنحن نحب ان نكافئه » . وهكذا عقد مسلمة بن مخلد لأبي المهاجر ، وعزل عقبة عن ولايتها ، وقدم ابو المهــاجر دينار الى افريقية ، فأساء عزل عقبة ، واستخف به وضيق عليه ، وسجنه وأوقره حديدا ، فأقام في الحبس شهورا ثم أطلقه حين اتاه كتاب معاوية بن ابي سفيان بتخلية سبيله وإشخاصه اليه . وعندما أطلقه ، ارسله برسل من قبله حتى اخرجوه من قابس ، وكان ابو المهاجر دينار يوقر عقبة ويعرف ما له من المقام العظيم ، فقد بلغ ابا المهاجر ان عقبة دعا عليه وقال « اللهم لا تمتني حتى تمكني من ابي المهاجر دينار بن ابي دينار » « فلم يزل ابو المهاجر خائفاً منذ بلغته دعوته » وتوجه عقبــة الى مصر في طريقه الى الشام ، وحين قدم مصر ركب اليه واليهـــا مسلمة بن مخلد ، واقسم له بالله لقد خالفه مـــا صنع ابو المهاجر ، وانه قد اوصى أبا المهاجر به خاصة. وعندما وصل عقبة الى الشام عاتب معاوية على ما فعله به ابو المهاجر فاعتذر معاوية اليه ووعده ان يعيده الى عمله . وبقي عقبة في الشام ، وتوفي معاويــة سنة ٦٠ هـ — ٦٧٩ م ، ثم توفي والي مصر مسلمة بن مخلد ، وخاف يزيـد بن

معاوية ان يضطرب الامر في افريقية فقال « ادركوا افريقية قبل ان يخربها ابو المهاجر » وجهز يزيد جيشاً من عشرة آلاف فارس،وسار عقبة الى افريقية من الشام حتى قدم على القيروان، فأخذ ابا المهاجر وحبسه وقيده ،وأخذ ما معه من الاموال وجدد بناء القيروان – بعد ان اهملها ابو المهاجر – وشيدها ونقل اليها الناس فعمرت وعظم شأنها « وكان ذلك سنة ٦٢ هـ – ٦٨١ م ».

كانت هذه الفترة ومدتها ستة أعوام ونيف ، من السنوات العجاف التي نزلت بساحة عقبة بن نافع ولقد أفنى عقبة شبابه في افريقية واحبها واحبته ، وشيد فيها وبنى ، وارسى القواعد الثابتة وكان من الصعب عليه العيش بعيداً عنها ، فعندما أعيد لولايتها ، عاد وهو اكثر تصميماً واكثر ايماناً بضرورة متابعة ما بدأ به ، فبدأ من فوره في اكمال الاستعدادات لجولته الجديدة .

أفريقية بين عهدين

لم يكن ابو المهاجر دينار بن ابي دينار مجرداً من الكفاءات القيادية ، ولم يكن ولاءه لمسلمة بن مخلد هو العامل الوحيد الذي أهّله لتولي ولاية افريقية ، وانما كان يتميز بكفاءة قتالية عالية وبكفاءة قيادية على المستوى ذاته ايضاً . ولهذا فانه ما ان تسلم قيادته حتى سار الى قرطاجنة [1] عاصمة الروم في شمال افريقية ،

(١) قرطاجنة – بلد قديم من ناحية افريقية ، وكانت مدينة عظيمة شامخة البناء أسوارها من الرخام الابيض ، وهي على ساحل البحر بينها وبين تونس اثنا عشر ميلا ، معجم البلدان ٧/٥٢ .

في محاولة لازالة هيمنتهم والقضاء على قوتهم في ساحل المغرب من بنزرت الى طنجة [١] . ونازل ابو المهاجر قرطاجنـة فاستغلقت وتحصنت بالاسوار العاليـة ، فشدد ابو المهاجر عليهم الحصار ، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى يتم لهم فتح قرطاجنة ، طلبوا الصلح ، فصالحهم ابو المهاجر على الجـلاء ، وارسل ابو المهاجر قوة بقيادة حنش بن عبدالله الصنعائي الى جزيرة شريك التي كان الروم يتخذونها دوماً لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين ، ففتحها ، واصبحت قاعدة للمسلمين. وسار ابو المهاجر مع الساحل باتجاه الغرب لا يعترض طريقه احد حتى وصل ميلة في الجنوب الشرقي لبجاية [٢] فوجدها مستعدة للقتـال ، وكان فيها طائفة من البربر والروم قد تحصنوا فيها، فنازلها ابو المهاجر وفتحها وغنم ما فيها ، واستقر بها . وكانت ميلة تتوسط المغربين الاوسط والاقصى ، فجعل ابو المهاجر ميـلة مقره وأقام فيها سنتين ، وكانت الزعامـة في المغربين الاوسط والاقصى لقبيـلة « أَوْرَبَة » وزعامتها لكسيلة بن لمزم الأوربي . وكان كسيلة

---

(١) بنزرت : مدينة بينها وبين تؤنس يومان . وطنجة مدينة قديمة على البحر ، بينها وبين مدينة سبتة مسيرة يوم واحد . معجم البلدان ٢/٢٩٢ و٦/٦٢ .

(٢) ميلة : مدينة صغيرة بأقصى افريقية الى الجنوب الشرقي من بجاية وبينهما ثلاثة أيام ، وبجاية مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب . معجم البلدان ٨/٢٢٦ و٢/٦٢ .

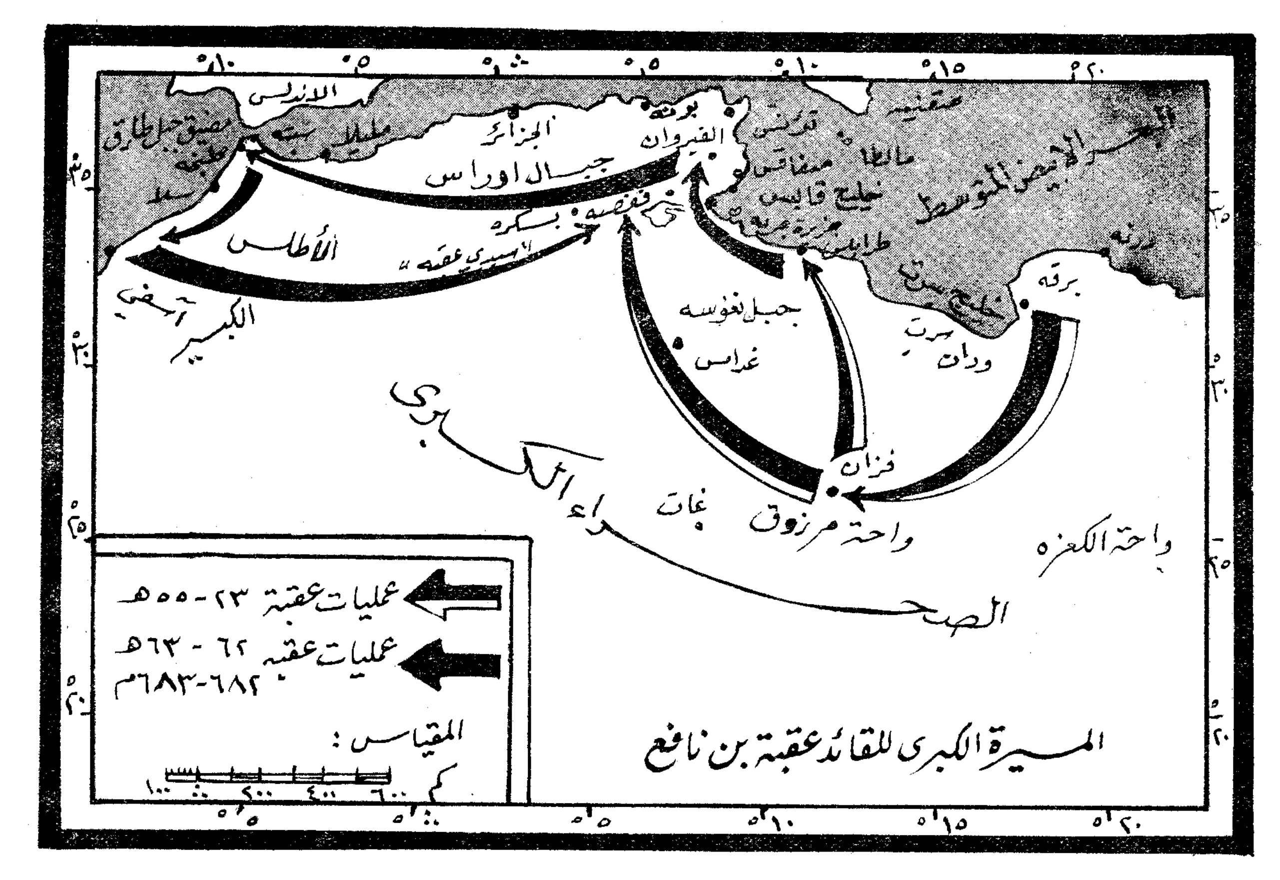
قد عسكر بـ « تلمسان »[١] فقصده ابو المهاجر والتقى الجيشان هناك ، فدارت معركة كبيرة بينهما انتصر فيها المسلمون ، وأُسر كسيلة ، فحمل الى ابي المهاجر ، فأحسن اليه ابو المهاجر وقربه وعامله معاملة الملوك . فأظهر كسيلة الاسلام[٢] فاستبقاه ابو المهاجر واستخلصه وانتهى الى العيون المعروفة بعيون أبي المهاجر ، فهو اول امير للمسلمين وطئت خيله المغرب الاوسط ، فصالح ابو المهاجر ، بربر افريقية وفيهم كسيلة الأوربي ، وصالح عجم افريقية « الروم » ثم رجع الى القيروان ، واقام بها ومعه كسيلة .

---

(١) تلمسان : مدينة بالمغرب اسمها القديم أقادير على بعد مرحلة من وهران ، معجم البلدان ٢/٤٠٩ .

(٢) كسيلة بن لمزم الاوربي : رئيس قبيلة (أوربة) كان قوي الشخصية ، ذكي الفؤاد ، غيورا ، وكان البربر يجلونه ويحبونه ، كان نصرانيا ، تولى الدعوة لحرب العرب المسلمين وحشد القوى بين المغربين الاقصى والاوسط ، واستطاع جمع جيش كبير من البربر والروم وحارب ابي المهاجر دينار ، فهزمه أبو المهاجر وأسره . وعندما تولى عقبة ولاية افريقية الثانية أساء معاملته ، فاتصل بالروم وراسلهم وراسلوه وتواعدوا على الثورة وحرب المسلمين ، ونجح هذا التجمع في قتل عقبة وأبو المهاجر وفئة من المسلمين عام ٦٣هـ ـ ٦٨٢م ، واضطربت افريقية من أقصاها الى اقصاها وبقي هذا الاضطراب اكثر من خمسة أعوام . وفي العام ٦٩هـ ـ ٦٨٨م ـ استطاع والي افريقية الجديد زهير بن قيس البلوي القضاء على حركة التمرد ، واخضاع الثورة وقتل كسيلة بن لمزم ، ولكن الروم تدخلوا ، وقاموا بانزال قواتهم خلال عودة زهير من عملياته ونجحوا في قتله ، ودفن زهير وشهداء المسلمين بـ (درنة) قريبا من الساحل .

(المؤلف)


المسيرة الكبرى للقائد عقبة بن نافع
عمليات عقبة ٢٣ - ٥٥ هـ
عمليات عقبة ٦٢ - ٦٣ هـ
٦٨٢ - ٦٨٣ م
المقياس :
كم
البحر الأبيض المتوسط
الأندلس
مضيق جبل طارق
طنجه
سبته
مليلا
الجزائر
بونة
القيروان
جبال اوراس
قفصه
بسكره
الأطلس
تونس
مالطا
صفاقس
خليج قابس
جزيرة جربة
طرابلس
صقلية
برقه
خليج سرت
ودان
جبل نفوسه
غدامس
فزان
واحة مرزوق
غات
واحة الكفره
الصحراء الكبرى
الكبير
آسفي



مأساة تهوذه ومقتل عقبة

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » .

(آل عمران ١٦٩ – ١٧٠)

عقبة في ولايته الثانية

مضى عقبة بأصحابه وبكثير من أهل القيروان الى المغرب بعد ان ترك في القيروان جنداً مع الذراري والأموال واستخلف بها زهير بن قيس البلوي وخرج بأبي المهاجر معه موثقاً . وسار

عقبة في عسكر عظيم حتى انتهى الى مدينـة « باغاية »[1] لا يدافعه أحد ، والروم يهربون في طريقه يميناً وشمالاً ، فحاصرها وقد اجتمعوا بها ، وقاتلهم قتالاً شديداً فانهزموا عنـه وقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، واحتمى المنهزمون داخل اسوار المدينة ، فكره المقام عليهم . ورحـل عقبة فنزل على تلمسان وهي من اعظم مدائنهم ، فانضم اليها مـن حولها الروم والبربر ، فخرجوا اليـه في جيش ضخم لجب ، والتحم القتال ووقع الصبر حتى ظن المسلمون أنه الفناء، ولكنهم هاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجأوهم الى حصونهم فقاتلوهم الى ابوابها، وأصابوا منهم غنائم كثيرة . وسار عقبة الى بلاد الزاب ، فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب فقيل له « أرَبَة »[2] وهي دار ملكهم وكان حولهـا ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة ، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى ، وهرب بعضهـم الى الجبال فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى ، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم .

توجه عقبة بعـد ذلك الى « تاهرت »[3] فاستغاث الروم

---

(١) باغاية ـ مدينة كبيرة في أقصى افريقية بين مجانة وقسنطينـة ، وهي حصن بربري قديم وكان سكانها من البربر والروم . معجم البلدان ٢/٤١ .

(٢) أربة ـ مدينة بالمغرب من أعمال الزاب وهي أكبر مدينة بالزاب . معجم البلدان ١/١٧٦ .

(٣) تاهرت ـ اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لاحدهما تاهرت القديمة ، وللاخرى تاهرت المحدثة . معجم البلدان ٢/٣٥٤ .

بالبربر فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبة في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وقال « أيها الناس ! إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على من كفر بالله الى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم الى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة ، وأنتم اليوم في غربة ، وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر اليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه فأبشروا ، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ، وربكم عز وجل لا يسلمكم ، فالقوهم بقلوب صادقة ، فان الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه ، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين » . والتقى المسلمون بأعداء المسلمين ، وقاتلوهم قتالاً شديداً ، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة الأعداء ، لكن المسلمين استقتلوا حتى دان لهم النصر ، فانهزمت جموع الروم والبربر ، وأخذتهم سيوف المسلمين وكثر فيهم القتل ، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم . وسار عقبة بعد انتصاره في تاهرت حتى نزل على طنجة ، فلقيه بطريق من الروم اسمه يليان [1]

---

(١) يليان Julian كان حاكما لسبتة وتذكره المصادر العربية بأسماء مختلفة (اليان ـ يوليان) وقد اختلفت المصادر العربية في أصله فذكر بعضها انه بربري من غمارة وذكر البعض الاخر أنه رومي (بيزنطي) في حين تثبت المصادر الاخرى بأنه قوطي (من قوط الاندلس) . وقد تولى

فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه .

أراد عقبة فتح الأندلس ولكن يليان حاكم سبته [١] قال له « أتترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بجبوحة الهلاك مع الفرنج ، ويقطع البحر بينك وبين مددك » فقال عقبة « وأين كفار البربر ؟ » فقال « في بلاد السوس ، وهم أهل نجدة وبأس » فقال عقبة « وما دينهم ؟ » فقال « ليس لهم دين ! ولا يعرفون ان الله حق ، وإنما هم كالبهائم » وكانوا على دين المجوسية يومئذ ، فتوجه عقبة، فنزل على مدينة « وليلى » [٢] بازاء جبل زرهون [٣] وهي يومئذ من اكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين « سبو و ورغة » [٤] وهذه المدينة هي المسماة اليوم على

=

يليان حكم سبتة واقليم طنجة في عهد مبكر من عمره ولكثرة اختلاطه بالبربر اختلط الامر . حتى نسبه البعض الى البربر والى قبيلة غمارة .وكان حليفا للملك القوط في الاندلس ، ثم حدث بينهما خلاف فدل العرب على عورات القوط، وقاد غزواتهم الاستطلاعية ، ثم رافق قوات فتح الاندلس في عهد موسى بن نصير وذلك عام ٩٢هـ ــ ٧١٠م .

(١) سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، ومرساها أجود مرسى على البحر . وهي على بر البربر ، تقابل جزيرة الاندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة وهي مدينة حصينة ضاربة في البحر ، بينها وبين فاس عشرة أيام . معجم البلدان ٥/٢٦ .

(٢) وليلى ــ مدينة بالمغرب قرب طنجة ، معجم البلدان ٨/٤٣٤ .

(٣) جبل زرهون ــ جبل بقرب فاس . معجم البلدان ٤/٣٨٨ .

(٤) سبو ــ نهر بالمغرب قرب طنجة . المعجم ٥/٣٢ وورغة نهر بالمغرب .

لسان العـــامة باسم « قصر فرعون » فافتتحها عقبـة وغنم وسبى .

انتهى عقبـة الى « السوس الادنى » وهو مغرب طنجة ، فقاتل جموع البربر الكثيرة وقتل منهم قتلاً ذريعاً ، وبعث خيله في كل مكان هربوا اليه ، ثم سار حتى وصل الى السوس الاقصى وقد اجتمع له البربر في عالم لا يحصى ، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم ، وسار عقبة حتى بلغ مالبان[1] ورأى البحر المحيط فقـــال : « يا رب ! لولا هـذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك . ثم قال : اللهم اشهد . اني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحـــد من دونك » .

كان المحور الذي اختاره عقبه بن نافع في تحركه ما بـــين القيروان ومالبان على المحيط الاطلسي هو محور الأطلس التلي حيث تتوفر فيه موارد المياه ، وكان هذا الطريق طويل ولكن موارد المياه وتوافر الموارد الحياتية كانتـــا تعوضان من صعوبة الطريق ومشقته ، ومن المحتمل ان يكون عقبة قـد علم أن ابن الكاهنة[2] البربري كان قد خرج في اثره بعد مغادرته القيروان

---

(١) مالبان : بلد في أقصى بلاد المغرب ، ليس وراءه غير البحر المحيط . معجم البلدان ٧/٣٦٧ .

(٢) ابن الكاهنة : هو ابن لامرأة كانت بجبل أوراس ، كان جميع من بافريقية من الروم خائفون منها ، وجميع البربر مطيعون لها . وقد اجتمع =

وانه كلما رحل جيش عقبة عن منهل دفنه ابن الكاهنة ، فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة الى السوس . ولهذا قرر العودة من طريق آخر هو طريق الأطلس الصحراوي وكان هذا الطريق هو أقصر محاور الاتصال للوصول الى القيروان. وعلاوة على ذلك فقد عرف عقبة في محور تقدمه ومن خلال معاركه قوة التلاحم بين الروم وبين بربر الساحل « الافارقة » بحيث انه سيصطدم حتماً بقوات متفوقة اذا ما رجع عن طريق الساحل ، في حين انه لن يجابه على محور تحركه الصحراوي سوى احتمال واحد هو احتمال اصطدامه بقوات متفرقة من البربر . وقرر عقبة العودة عن طريق الأطلس الصحراوي ،حيث الصحراء مجال عمل العرب المسلمين وميدانهم الأمثل في حروبهم . ولم يكن في الطريق الجديد الذي قرر عقبة اتباعه سوى صعوبة واحدة في طريق

=

اليها البربر بعد مقتل كسيلة ، وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم . تزعمت قيادة الحرب ضد المسلمين في افريقية ، وألحقت الهزيمة بهم في معركة تعرف بمعركة البلاء على نهر نيني . وتراجع حسان ابن النعمان الازدي الغساني حتى حدود قابس . وأقام حسان في طرابلس زهاء خمسة أعوام يستعد لحربها ، واستمرت سيطرة الكاهنة على افريقية طوال الفترة (بين ٧٦ ـ ٨١هـ ، ٦٩٥ ـ ٧٠٠م) وعندما أكمل حسان استعداداته واستقرت أمور الحكم في الشام لعبد الملك بن مروان فأمر حسان بالقضاء على الكاهنة بعد ان وفر له الامكانات الضرورية للنصر . وقاد حسان المسلمين وانتصر على الكاهنة وقتلها في مكان يعرف باسم (بئر الكاهنة) .

(المؤلف)

تحرك القوات وهي صعوبة الحصول على المـاء والموارد الحياتية بالنسبة لقوات جيش كبير كجيش عقبة بن نافع . وهنا ، وفي طريق العودة ، تظهر نقطة حاسمة قـد يكون من الضروري التعرض لها. فعندما رد يزيد بن معاوية عقبة بن نافع الى افريقية خرج عقبة سريعاً ، فوصل الى القيروان وقبض على اميرهـا أبا المهاجر دينار ، وأوثقه في الحديد ، وأساء عزله ، وغزا به معه وهو في الحديد . واساء عقبة كذلك الى كسيلة ، ولم يحفظ له مكانته على الرغم من نصح ابا المهاجر وتوصيته به . وكان من استخفاف عقبة بكسيلة أن أتى عقبة بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السلاخين ، فقـال كسيلة « هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤونة ،فشتمه وأمره بسلخها ففعل » فقبح ابو المهاجر هذا عند عقبة فلم يرجع . فقال له : « أوثق الرجل فاني أخاف عليك منه » فتهاون عقبة فأضمر كسيلة الغدر . ثم عاد عقبة عن طريق الصحراء فنفر الروم والبربر عـن طريقه ، واستمر في طريقه حتى وصل الى مدينة طبنة « وهي ثغر افريقية تقع على ضفة الزاب » لم يكن قد بقي بينه وبين القيروان اكثر مـن ثمانية أيام . فأمر اصحابه ان يتقدموا فوجاً فوجـاً ، ثقة منه بما نال من العدو ، وانه لم يبق أحد يخشاه . وسار الى تهوذة[١]

---

(١) تهوذة ـ وعند ابن الاثير تهوذا ـ اسم لقبيلة من البربر بناحية افريقية ، لهم أرض تعرف بهم ، وتهوذة مدينة في جنوب جبال أوراس وفي الجنوب الشرقي لمدينة طبنة وتبعد عنها بمسافة ٣٧٫٥ ميل تقريبا .

لينظر اليها في نفر يسير ، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه . فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه ، وهو يدعوهم الى الاسلام فلم يقبلوا منه . وبعث الروم الى كسيلة واعلموه حاله، وكان قدأعلم الروم بذلك وأطمعهم، فلما راسلوه أظهر ما كان يضمره من الغدر وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة ، فقال أبو المهاجر « عاجله قبل ان يقوى جمعه » وكان ابو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة ، فزحف عقبة الى كسيلة ، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه فلما رأى ابو المهاجر ذلك تمثل بقول ابي محجن الثقفي[1] :

---

(١) أبو المحجن الثقفي : شاعر فارس من شعراء المسلمين ، كان سعد ابن أبي وقاص قد سجنه أثناء معركة القادسية . وفي يوم أغواث - اليوم الثاني لمعركة القادسية - وعندما اشتد القتال صعد الى سعد يستعفيه ، فزجره سعد ورده ، فنزل وقال لسلمى زوج سعد : هل لك الى خير . قالت (وما ذاك) قال (ان تخلي عني وتعيريني البلقاء فلله علي ان سلمني الله أن أرجع اليك حتى أضع رجلي في قيدي ، فأبت فقال :

كفى حزنا أن ترتدي الخيل بالقنا	وأترك مشدودا علي وثاقيا
اذا قمت عناني الحديد وأغلقت	مصارع دوني قد تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير واخوة	فقد تركوني واحدا لا أخا ليا
ولله عهد لا أخيس بعهده	لئن فرجت ان لا أزور الحوانيا

فرقت له سلمى ، وأطلقته وقالت له (أما الفرس فلا أعيرها) فأخذها بنفسه بعدما ذهبت هي ، واقتادها فأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق فركبها . ثم دب عليها حتى اذا كان بحيال ميمنة المسلمين كبر ثم حمل على ميسرة الفرس ثم رجع خلف المسلمين وحمل معه على ميمنة الفرس وكان =

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا
واترك مشدوداً علي وثاقيا

اذا قمت عناني الحديد وأغلقت
مصارع من دوني تصم المناديا

=

يقصف الناس قصفا منكرا ، وتعجب الناس منه وهم لا يعرفونه . وقتل رجالا كثيرا من نساكهم ، ونكس اخرين ، وتابع قتاله متنقلا بين الميمنة والقلب والميسرة ، لا يخرج له فارس الا هتكه ، ولم يبرز له مقاتل الا اختطفه ، وعجب الناس من أمره ، وقال بعضهم هو من أصحاب هاشم بن عتبة أو هاشم نفسه ، وقال اناس (لولا ان الملائكة لا تباشر الحرب لقلنا انه ملك) ولم يذكره الناس ولا يأبهون له لاعتقادهم انه بات في محبسه ، كل ذلك وسعد مشرف على الناس ، مكب من فوق القصر ، فقال والله لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء . فلما انتصف الليل وتراجع المسلمون والفرس عن القتال ، أقبل أبو محجن فدخل القصر ، وأعاد رجليه في القيد وقال :

لقد علمت ثقيف غير فخر — بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعا سابغات — وأصبرهم اذا كرهوا الوقوفا
وانا وفدهم في كل يوم — فان عميوا فسل بهم عريفا
وليلة قادس لم يشعروا بي — ولم أشعر بمخرجي الزحوفا
فان أحبس فذلكم بلائي — وان أترك أذيقهم الحتوفا

فقالت له سلمى (في أي شيء حبسك سعد) فقال (والله ما حبسني
=

فبلغ عقبة ذلك فأطلقه ، وقال له « إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة » فلم يفعل وقال « وأنا أيضاً أريد الشهادة » فكسر عقبة والمسلمون أجفانهم « وكانوا ثلاثمائة فارس تقريباً فيهم عدد من الصحابة » وتقدموا الى البربر ، وقاتلوهم ، فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد ، وأسر محمد بن أوس الأنصاري في نفر يسير من صحبه ، فخلصهم صاحب قفصة ، وبعث بهم الى القيروان ، فعزم زهير بن قيس البلوي على القتال، فخالفه حبيش الصفاني وعاد الى مصر ، فتبعه اكثر الناس ، فاضطر زهير الى العود معهم فسار الى برقة وأقام بها . وأما كسيلة فاجتمع اليه جمع أهل افريقية،وقصد افريقيةوبهاأصحاب الأنفالوالذراري من المسلمين،فطلبوا الأمان من كسيلة،فأمنهم، ودخل القيروان واستولى على افريقية ، وأقام بها الى أن قوي أمر عبد الملك بن مروان ، فاستعمل على افريقية زهير بن قيس

=

بحرام أكلته ولا شربته ، ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني فقلت :

اذا مت فادفني الى أصل كرمة   تروي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنني بالفلاة فانني   أخاف اذا ما مت ان لا أذوقها

فلذلك حبسني ، فلما أصبحت أتت سعدا ، وأخبرته بخبر أبي محجن ، فدعا به فأطلقه وقال له (اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله) فقال أبو محجن (لا جرم ـ والله لا أجيب لساني الى صفة قبيح أبدا) الكامل ـ ابن الاثير ٢/٣٣٠ ـ ٣٣١ .

البلوي ، وكان ببرقة مرابطاً . فسار زهـــير بجيش كبير سنة تسع وستين – وقضى على كسيلة في معركة ممش أو « ممس » .

عندما استقر المسلمون بعد ذلك في افريقية، جعلوا على عقبة بن نافع والصحابة الشهداء قبوراً لها اسنمة ثم جصصت ، واتخذ على المكان مسجد يعرف باسم عقبة وهو في عـــداد المزارات . وطويت بوفاة عقبة واستشهاده ، صفحة من صفحات الجهاد ، حفظها التاريخ وحفظتها الأجيـــال . وعرفت فيها المثل الأعلى للايمان وللعمل حتى الشهادة .

الفصل الثاني

عقبة بن نافع وفن الحرب

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتمُ الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »
(الانفال - ١٥)

يحتل عقبة بن نافع موقعاً أثيراً في قلوب المسلمين ، فهو الانسان المؤمن المجاهد العامل في سبيل الله ونشر رسالته ، ما وهن ولا ضعف في مواجهة الشدائد والصعاب حين ضعف اقوى الرجال وأصلبهم عوداً . نذر حياته وباع نفسه حتى لقي وجه ربه راضياً مرضياً .

ويحتل عقبة مكانة مرموقة في صفوف قادة العرب المسلمين ، فقد خرج من الجزيرة في أول شبابه ، وقضى ما يزيد على ربع قرن مرابطاً في برقة ، قائدا لحاميتها ، مدافعاً عن المسلمين ، عاملاً على ترسيخ دعائم مجتمع جديد قائم على الحق والعدل والخير للناس كل الناس وللعرب المسلمين منهم خاصة لا على اساس التمييز العرقي او العنصري وانما على اساس ما كرم الله به العرب من واجب حمل الرسالة وتعريف الدنيا بها . وقد أدى عقبة دوره بتجرد واخلاص وشجاعة حملت له حب المجاهدين ومبادلتهم له حباً بحب واخلاصاً باخلاص ووفاء بوفاء .

لقد حقق عقبة بن نافع منجزات رائعة ، وقاد المجاهدين في صراع مرير لا هوادة فيه طوال اكثر من ربع قرن . ويظهر العرض السابق الملامح العامة لاسلوب عقبة في حربه ، كما يظهر الخطوط الرئيسية للاسس والمبادىء التي اعتمدها عقبة في صراعه السلمي والمسلح على حد سواء . وفي الواقع ، فان ابراز هذه الاسس والمبادىء ،وتقييمها تقييماً صحيحاً لابراز أهميتها، يفرض النظر الى هذه الاسس وما حققته من منجزات في إطار مجموعة من المعطيات قد يكون أبرزها :

١ – النظر الى هذه الاسس من خلال السياسة – الاستراتيجية للعرب المسلمين في فتوحاتهم وحروبهم ، وعدم النظر اليها كظواهر منفصلة وكأحداث مستقلة وبذلك تصبح صورة الموقف اكثر وضوحاً ، وتظهر منجزات عقبة الرائعة في اطار شمولي لا

تضيع منه التفاصيل الدقيقة .

٢ – النظر الى هذه الاسس وما حققته من نتائج في اطاريها الزماني ، والمكاني ، ذلك أن فصل الحدث التاريخي عن الأرضية التي تفاعل الحدث فوقها ، وإبعاده عن حدوده الزمنية التي اسهمت في صنعه يجرد الحدث من مقوماته الاساسية ويفقده أهميته ، فثورة الكاهنة وثورة كسيلة تفقدان كل قيمة لهما ان لم ينظر اليهما من خلال تلك الحقبة حيث كان للروم « البيزنطيين » فيها نفوذهم وقوتهم ، وكان التلاحم بين اهل البلاد « أفارقة الساحل » وبين الروم وثيقاً وحميماً كما ان أحداث هذه الثورات تفقد مضامينها ان لم ينظر اليها من خلال طبيعة مسرح العمليات وميزان القوى وطبيعة الأعمال القتالية خلال تلك الفترة فوق أرض افريقية .

٣ – الأخذ بعين الاعتبار ،توافق الأسس السياسية والمبادىء الاستراتيجية العامة للعرب المسلمين في حروبهم مع تلك الأسس والمبادىء التي طبقها القائد ، وبذلك يظهر الدور الفردي للقائد وما يتميز به من قدرات وكفاءات سواء من حيث تنسيق سياسته الاستراتيجية مع السياسة العامة لدولة العرب المسلمين ، او من حيث توافق القوى والوسائط المتوافرة مع الواجب المحدد والهدف المطلوب بلوغه وبذلك ايضاً تظهر كفاءة القائد القيادية ومهارته في صنع الأحداث وتحديد مسيرتها والهيمنة عليها . ويبقى بعد ذلك الصفات والكفاءات الخاصة بالقائد من حيث هو انسان

يخضع لأفكار وعواطف هي التي تميزه ككائن حي له شخصيته ، وهي التي تحفزه لاتباع هـذا السلوك او ذاك ، ويبقى العامل الحاسم في النهاية هو مقدار تأثير هذه النوازع الشخصية على القرار الذي يتخذه القائد ، ومدى خضوع القائد لنزواته وعواطفه وانفعالاته عند اتخاذه لقرار يتعلق بشؤون عامة ومصلحة عليا . وعلى ضوء هذه المعطيات يصبح بالامكان تقييم منجزات القائد عقبة بن نافع ، ولا حاجة للقول بأنه من الظلم لعقبة ومن الاجحاف لمنجزاته ان تطرح وان تناقش في حالة من الانفعال العاطفي او التأمل العقلاني بعيدا عن تلك الظروف التي قاتل فيها عقبة والتي عاشها والتي أقل ما يقال فيها انها التقاء مجموعة من الظروف الصعبة والقاسية وهي ظروف لم يكن باستطاعة انسان معها صنع حدث تاريخي الا اذا كان من نموذج عقبة واخوان عقبة في ايمانهم واخلاصهم وتجردهم وشجاعتهم .

آ ــ في الاستراتيجية العليا

١ ــ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة

وضع الرسول الأعظم مبدأ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة، وطبقه في حياته، ولم تكن هجرته الى المدينة المنورة، سوى تثبيت لهذا المبدأ، وتأكيد لأهميته في العمل لبناء المجتمع الجديد، مجتمع الاسلام والايمان. وعندما تولى ابو بكر الصديق خلافة العرب المسلمين وانتقضت اطراف الدنيا على المسلمين، حشد الخليفة جميع القوى والوسائط للقضاء على « الردة » حتى اذا اصبحت القاعدة ــ قاعدة الجزيرة العربية ــ قوية ومأمونة ، وجه الخليفة جيوش المسلمين وقواتهم لفتح بلاد الشام « والعراق » وعندما تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وتم فتح الشام والعراق ومصر ، أصدر الخليفة عمر اوامره بالتوقف عن متابعة الفتوح ريثما يتم بناء القاعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتأمين القاعدة الحربية القوية لمتابعة الفتوح . فاذا انتقلنا بعد ذلك من تطبيق هذا المبدأ على المستوى السياسي ــ الاستراتيجي ، الى تطبيقه

على مستوى عملياتي فاننا نجد ذلك واضحاً كل الوضوح في قيادة عقبة بن نافع وفيما حققه من منجزات .

لقد عمل عقبة في برقة طويلاً ، وركز جهده لبنـاء القاعدة السياسية والاجتماعيـة ، ونشر دين الاسلام ، وكانت برقة بحكم موقعها تمثل القاعدة العسكرية المتقدمة وبذلك اجتمعت فيهـا القاعدة الاجتماعية والقاعدة العسكرية معاً ، وكان عقبة اذا ما خرج لحرب أو غزو ترك فيها من يقوم بأمرها ، وذلك لضمان الاستقرار فيها ،وحتى يوفر الحماية لمؤخرة المسلمين. وعندما شعر عقبة ان بناء قاعدة برقة قد أصبح قوياً وثابتاً ، وتطلبت اعمال الفتوح بناء قاعدة جديدة أخذ في البحث عـن موقع تتوفر له شروط استراتيجيةواجتماعية محددة فوقع اختياره على القيروان، وممـا تجدر ملاحظته في الحالتين ان عقبة كان يشترط في القاعـدة التي سيعمل على بنائهـا واقامتها مجموعة من الشروط منها :

١ – ان تكون القاعدة **قريبة** قـدر المستطاع من حدود الاقاليم التي لا زالت غير مستقرة، وذلك حتى يستطيع الاتصال بسهولة بأهل تلك البلاد للتعرف عليهم وتعريفهم بالدين الجديـد وهدايتهم .

٢ – ان يتوفر للقاعـدة موقع استراتيجي يضمن **الحماية** ضد مباغتات العدو وضد هجماته وغاراته . فعندمـا طلب اصحاب عقبة تقريب القيروان من البحر أجابهم « أخاف ان

يطرقهـا صاحب القسطنطينية فيهلكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر » .

٣ ـ ان يتوفر للقاعدة قدر كاف من **الأمن** ، فعندما فكر في بناء القيروان ، كان في جملة ما حمله على التفكير في إقامـة القاعدة الجديدة الرغبة في الابتعاد عن قمونية « لأن بعض غير المسلمين كانوا يسكنون قمونية مع المسلمين » . وكان يريد لمجتمع المسلمين ـ العرب وغير العرب ـ نوعاً من الحماية تبعدهم عن عيون العدو « جواسيسهم » وتضمن لهم تطبيق تدابير الأمن الحقيقية وقد ضحى بذلك بعامل المتطلبات الحياتية حيث كانت قمونية في بسيط من الأرض ، كثير المراعي ، جيد الهواء خصب التربة كثير الهواء ، ورغم ذلك فقد فضل عقبة هجر هـذه الميزات والاعراض عنها مقابل تأمين عامل الحيطة .

٤ ـ ان تكون القاعدة على **محاور التحرك** الساحلية والصحراوية لتأمين الاتصال والتحرك من القاعدة واليها، وحتى يكون بالمستطاع الانطلاق للأعمال القتالية سواء كان ذلك على المحور الساحلي أو للتوغل في أعمـاق الصحراء . وبذلك كانت برقة في البدايـة ثم القيروان فيما بعد قادرة على التحكم بطرق الاتصال لتأمين حرية قوات العرب المسلمين في التحرك من جهة ولحرمان العدو من هذه المحاور من جهة ثانية . وكانت هـذه القواعد بحكم موقعها المتوسط من محارو التحرك، وبفضل ما يتوفر لها من شروط استراتيجية ، من العوامل الرئيسية التي ساعدت

في نجـاح القواعد المذكورة للاضطلاع بدورها في نشر الدعوة الاسلامية أولاً ، وفي توفير الحماية « للمسلمين » ثانياً . وفي بنـاء المجتمع الجديدة ، مجتمع الاسلام والايمان .

٢ – بناء المجتمع الجديد

تطلب بناءالقاعدة الاسلامية فيالجزيرة العربية جهد الرسول الأعظم طوال ٢٣ عاماً تقريباً قضى اكثر مـــن نصفها في مكة المكرمة ، ثم انتقل الى المدينة المنورة ، واستمر في بناء القاعدة الاسلامية واقامة المجتمع الجديد حتى نهايـة حياته ، وأمكن خلال هذه الفترة اقامة علاقات اجتماعية جديدة لا علاقة لهـــا بعلاقات« عالم الجاهلية ». وظهر جيل جديد اخذ على عاتقه إكمال الرسالة . وكان عقبة بن نافع صحابياً بالولادة ، وله صحبة ،وقر الاسلام في نفسه وقلبه ، وعرف حقيقته ، فأخذ على عاتقه مـا فرضه الاسلام على المسلمين من واجب الدعوة والجهاد ، واستقر به المقام في برقة فقضى فيها ربع قرن تقريباً يعمل على بناءالمجتمع الجديد واقامة العلاقات الجديدة وهذا يوضح سبب ما تميزت به قاعدة برقة من ثبات وقوة . ويظهر نجـاح عقبة في بناء المجتمع الجديد من خلال مجموعة من الشواهد ليس أقلها :

١ – اتساع قاعدة المسلمين في افريقية فخلال بناء القيروان « كان مع عقبة عشرة آلاف فارس ، وانضاف اليه من أسلم من البربر ، فكثر جمعه ... وكان عقبة في أثناء عمارة المدينة يرسل

السرايا ، فتغير وتنهب ، ودخل كثير من البربر في الاسلام واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين » .

٢ – الحزم في مجابهة غير المسلمين ، مقابل التراحم بين المسلمين عملاً بما يعنيه بقوله تعالى (أشداء على الكفار رحماء فيما بينهم) وبذلك يخلق الحافز القوي لغير المسلمين من أجل الدخول على هذا العالم الجديد عالم المسلمين ، والتعرف عليه . وهذا يوضح موقف عقبة من المشركين في طرابلس عندما طلب هؤلاء من عقبة ان يصالحهم فأجابهم « انه ليس للمشركين عهد عندنا .. وكيف يكون للمشركين عهد ، ولكن ابايعكم على ان توفوني ذامتي ، إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بعناكم » . وينسجم هذا الموقف في الواقع مع وصية عمر بن الخطاب الى قائده سلمة بن قيس الأشجعي وقد وجهه لحرب الأكراد « على جبهة خراسان » حيث قال له : « فان سألوكم ان ينزلوا على حكم الله وحكم رسوله ، فلا تنزلوهم على حكم الله ، فانكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله فيهم . وان سألوكم ان ينزلوا على ذمة الله وذمة رسوله ، فاعطوهم ذمم أنفسكم ، فان قاتلوكم فلا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان إبعاد القيروان ، وعزل معسكرات المسلمين عن منازل أهل البلاد تحمل في وجه من وجوهها ضرورة من ضرورات بناء المجتمع الجديد ، ويظهر ذلك من وصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى قائده سعد بن

أبي وقاص « نح منازلهم – منازل الجند – عن قرى اهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من اصحابك الا من تثق بدينه ، ولا يرزأ احد من أهلها شيئاً ، فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولوهم صبرا،ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح »[1] . اما عن طبيعة هذه العلاقات ، فهي معروفة ومحددة بتعاليم القرآن وسنة نبيه، فاذا عرف مقدار ما كان يتميز به عقبة من الورع والتقوى ، أمكن معرفة حرصه على تطبيق تعليمات الاسلام وشرائعه مما ضمن له الاستقرار وكفل له النجاح في اقامة المجتمع الجديد .

٣ – التركيز في نشر الاسلام وبناء المجتمع الجديد على أهل البلاد الأصليين ، وعلى الوثنيين منهم بصورة خاصة ، ويظهر ذلك من خلال مسيرة الأعمال القتالية التي اتبعها عقبة بن نافع فيلاحظ ان القسم الاكبر من العمليات قد تركز على الجبهة الصحراوية ، حيث يستقر أهل البلاد ويقيمون ، وحيث يفتقرون الى العقيدة والديانة ويظهر ذلك من وصف يليان حاكم سبتة لهم « ان كفار البربر في بلاد السوس ، وهم أهل نجدة وبأس ، ليس لهم دين ، ولا يعرفون أن الله حق ، وانما هم كالبهائم » وكانوا على دين المجوسية يومئذ ، ولقد كانت هذه الأرضية التي استند اليها عقبة في بناء المجتمع الجديد هي التي حققت للاسلام انطلاقته القوية والثابتة في المغرب العربي .

---

(١) العقد الفريد ١/٤٠ .

٣ - وضوح الهدف

كان الهدف من الحرب واضحاً كل الوضوح عند عقبة بن نافع مثله في ذلك مثل قادة العرب المسلمين جميعاً دون استثناء وكان هدفهم هو نشر راية الاسلام . وقد تجلى هذا الهدف في اقوال عقبة وفي سلوكه في المواقف المختلفة .

كان عقبة بن نافع أول من نشر الاسلام في زويلة وبرقة والنوبة والسودان وفي المناطق الواسعة من الصحراء ما بين برقة والمحيط « فأسلم البربر وكانوا نصارى ، وفشا الاسلام الى ان اتصل ببلاد السودان وبالبحر المحيط » . وعندما وقف عقبة في مواجهة أخطر المواقف، حيث لم يكن معه الا قلة من المسلمين ، فاستضعفه الروم وطمعوا فيه وأغلقوا الحصن وشتموه « وهو يدعوهم الى الاسلام » وعندما سار الى جرمة ودنا منها « دعا أهلها الى الاسلام فأجابوا فنزل منها على ستة أميال » فاذا تجاوزنا الأعمال الى الاقوال ، فسيظهر الوضوح في الهدف عند عقبة بصورته الحقيقية ، ولقد كان في أقوال عقبة عندما خرج في حملته الاخيرة وودع أهله وأبناءه بوصيته الخالدة النموذج الرائع لوضوح الهدف حيث قال : « **اني قد بعت نفسي من الله عز وجل ، فلا ازال أجاهد من كفر بالله** » . « **اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك** » وعندما وصل المحيط الاطلسي في أقصى المغرب العربي وقف ليقول : « يا رب ، لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في

سبيلك .. اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود ، ولولا هـذا البحر لمضيت في البلاد اقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك »
وعندما وصل الى بلاد أسفي على المحيط الاطلسي . أدخل قوائم فرسه في البحر المحيط ، ووقف ساعة ثم قال لأصحابه « ارفعوا أيديكم » ففعلوا ، فقـال « اللهم اني لم أخرج بطراً ولا أشراً ، وإنك لتعلم انما نطلب السبب الذي طلبه عبدك وهو ان تعبد ولا يشرك بك شيء . اللهم إنا معاندون لدين الكفر ، ومدافعون عن دين الاسلام ، فكن لنا ولا تكن علينا ، يا ذا الجلال والاكرام. ثم انصرف راجعاً » . وعندما خاض معركته الاخيرة ، وكانت نتيجة المعركة مقررة ومعروفة قبل خوضهـا بسبب الفارق الكبير في ميزان القوى . عرف عقبة النهاية الحتمية ، فلم تغب الرؤيا عنه وظهر الهدف الواضح أمامه مثلما كان واضحاً في جميع أطوار حياته ، فقال لأبي المهاجر دينار : « الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا اغتنم الشهادة » فلم يفعل وقال « وأنا ايضاً أريـد الشهادة » .. **وقاتل عقبة حتى استشهد وصحابته جميعاً** .

بعد هذه الشواهد جميعها ، وهي قليل من كثير ، يستحيل القول بأن هناك هدف يمكن أن يكون أكثر وضوحاً مما كان عليه عند عقبة بن نافع . **فالحرب وسيلة وليست غاية في ذاتها** ونشر الاسلام هو الهدف والغايـة ، ومع الايمان بعدالة الهدف فقد كان حقـاً على المؤمنين خوض معاركهم لتحقيقه متبعين في ذلك وسيلة الاقناع في أقوالهم وفيما يضربونه مـن مثل أعلى .

وتأتي الحرب بعد ذلك وسيلة لتحقيق ما عجزت الوسائل السلمية عن تحقيقه ، فيكون الهدف واضحاً في السلم والحرب ، ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، فعقبة بن نافع يعرف ان الهدف واحد بالنسبة له وبالنسبة للمقاتلين المؤمنين معه ، وان هذا الهدف على درجة من الوضوح للجميع ، فهو يذكرهم بهذا الهدف في أقسى ظروف الحرب وأصعبها فيقول لهم « انكم لم تبلغوا هذه البلاد الا طلباً لرضاه واعزازاً لدينه فأبشروا » . ويظهر ذلك مدى الانسجام الكامل والتوافق التام بين اقوال عقبة وأعماله من جهة وبين هذه الاقوال والاعمال وبين المحيط الذي يعمل فيه وهو محيط المسلمين المؤمنين من جهة أخرى . ولقد كان هذا الوضوح في الهدف الى جانب ما تميز به هذا الهدف في حد ذاته من قيم رائعة هو الحافز القوي الذي دفع عقبة والمسلمين الى تحقيق تلك الاعمال الخالدات، وعو السبب الذي تحمل المجاهدون في سبيله ما لقوه ، حتى باعوا أنفسهم في سبيل الله وفي سبيل نشر رسالته .

٤ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الاسلام

كان الرسول الأعظم حريصاً كل الحرص على المسلمين (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) [١] وكان قادة العرب عموماً يعرفون قيمة العنصر

---

(١) سورة التوبة ـ الآية ١٣٨ .

العربي وأهميته لحمل الرسالة ، فكان الخلفاء يخططون للعمليات بحيث يضمنون عدم توريط المسلمين في معارك استنزاف لا طائل تحتها ولا فائدة منها، وكان أمراء المؤمنين يوصون قادتهم بالحرص على المسلمين ، وكان القادة جميعاً يحرصون على العنصر العربي المسلم ، فيشترطون في معاهداتهم مع أهل البلاد رعاية المسلم وتأمينه وتوجيهه ، ويعملون في قيادتهم على توفير أفضل الشروط من اجل حماية المسلمين وزجهم في القتال مع اخذ اقصى تدابير الحيطة ، بحيث يمكن تحقيق الهدف ضمن احتمال حدوث الحد الأدنى من الخسائر . ويظهر ذلك أهمية العنصر العربي المسلم في منظور القيادة ، مما كان يدفع هذه القيادة للحرص على العنصر العربي . وكان عقبة بن نافع قائد من قادة العرب المسلمين. فكان من الطبيعي ان تتوافق مفاهيمه وأعماله مع المفاهيم العامة ، ولم يكن عقبة في ذلك مجرد منفذ لمفاهيم القيادة العامة ، وانما كان قائدا عاملاً في تطوير هذه القيم والمفاهيم وترسيخها فكان صحابياً نهل من ينبوع الرسالة وفهم عمق الديانة فانطلق يعمل بوحي من إيمانه وبتوجيه من قناعاته ، ولهذا فان توافق سلوكه وتصرفاته مع مفاهيم القيادة الأعلى كان بعيدا كل البعد عن التقليد ، او حتى التنفيذ الخالي من المضمون واذا كان العمل العظيم في حاجة لأكثر من حافز ، فقد كان في جملة حوافز بناء القيروان هو حرص عقبة على العرب المسلمين « حتى تكون عزا للاسلام الى آخر الدهر » .

وعند عودة عقبة من المحيط الى القيروان ، أرسل قواته

افواجاً افواجاً ليضمن السلامة للمسلمين . واثناء بناء القيروان كان عقبة يرسل السرايا لتغير وتنهب حتى يضمن الحيطة ضد كل هجوم مباغت . وعندما عرف عقبة انه يخوض معركته الأخيرة في تهوذة، كان آخر ما فكر فيه هو اسناد قيادة المسلمين لمن يحرص عليهم فتركز تفكيره على أبي المهاجر دينار وقال له « إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة » . وان هذه الشواهد تثبت بشكل قاطع — في القول والعمل — حرص عقبة على المسلمين، وعمله الدائم للمحافظة على العنصر العربي — حامل راية الاسلام — من اجل أداء الأمانة ونشر رسالة الاسلام .

هنا تظهر نقطة تستحق التأمل طويلاً والتوقف عندها ، **فالحرص على العنصر العربي لم يكن يعني أبداً السلبية**، والابتعاد عن الخطر ، والبحث عن السلامة ، بقدر ما كان يعني العيش في خطر واقتحام الاهوال ولكن في اطار من الحذر الكبير والحيطة الضرورية . لقد قاد عقبة آلاف الرجال ، وخاض بهم مجموعات من المعارك المتصلة ، واقتحم بهم كره القتال ، ولكنه كان وهو يخوض صراعه المرير ، كان يتخذ كل تدابير الحيطة الممكنة مع استعداده للتضحية بنفسه قبل كل شيء وبالمقاتلين معه لتحقيق الهدف من الصراع .

ذلك هو الحرص الذي يوازن بين الهدف والوسيلة ، بين التضحية والامن بين الحرص والبذل. وتلك هي إحدى الخصائص التي تميزت بها الشخصية القيادية عند عقبة بن نافع .

ولم تكن الاسس الاستراتيجية السابقة هي كل ما استخدمه عقبة وطبقه في عملياته ، وانما هناك أسس أخرى اعتمدهـا في حروبه وصراعه وليس أقلها حرمان العدو من موارده الاقتصادية عن طريق فرض الجزية وحرمان الروم « البيزنطيين منها » مما كان يساعده بالتالي على فرض العقيدة الاسلامية واعداد الارضية الثابتة لبناء المجتمع الجديد ، واقامة علاقات عامة متطورة كل ذلك في اطار من التكامل الرائع في عقيدة المسلمين ، واذا كان الدين الاسلامي هو العقيدة المتكاملة في التشريع ، وفي معالجة شؤون النـــاس ، فــان التكامل في فن الحرب وفي الاسس الاستراتيجية عند العرب المسلمين ليس سوى ظاهرة محددة لذلك التكامل والشمولية مما تميز به الاسلام .

٥ – استراتيجية الحرب التشتيتية

المقصود هنا باستراتيجية الحرب التشتيتية ، هو حرمان قيادات العدو من اتخاذ القرارات الصحيحة واتخاذ تدابير ناجحة لمقاومة قوات العرب المسلمين اثنـــاء عمليات الفتوح ، وتعتمد استراتيجية الحرب التشتيتية في الواقع على مجموعة من الاسس والمبــادىء بعضها يدخل في **تدابير أمن القتال** « كالمحافظة على السر ، وتنفيذ تدابير الحيطة ، واخفاء النوايا عـــن العدو ، واستخدام المخططات الخداعية » ويدخل بعضها في مبـــادىء الحرب « كالمباغتة ، والمبادأة ، والتمويه العملياتي » .

ولقد كانت استراتيجية الحرب التشتيتية في المغرب العربي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمخطط العام لدولة العرب المسلمين سواء كان ذلك اثناء عهد الخلفاء الراشدين أو في عهود بني أمية . ولم تكن الهجمات البحرية والاغارات على جزائر البحر الابيض المتوسط « بحر الشام » في أحد جوانبها سوى مظهر لاستراتيجية الحرب التشتيتية في اطارها العام . وقد اشترك عقبة بن نافع في تنفيذ هذه الاستراتيجية عندما قاد أهل مصر في غزوتين بحريتين كبيرتين « عامي ٣٩ و ٤٩ هـ » . كما نفذ عقبة استراتيجية الحرب التشتيتية في عملياته القارية « البرية » حيث اتبع سياسة واضحة لفصل الروم عن أهل افريقية من جهة واتخذ من التدابير ما هو ضروري لعزل مجتمع المسلمين واتخاذ تدابير الحيطة من جهة أخرى . أما على المستوى العملياتي فقد طبق عقبة استراتيجية **الحرب التشتيتية** بطرائق مختلفة وأساليب متنوعة ، وكان في جملة هذه الطرائق قيادة قواته بنفسه في أعمال محدودة والتوغل في عمق الصحراء والظهور في أماكن متنوعة وفي اوقات غير متوقعة مما كان لا يسمح للخصوم بالتجمع وتنظيم مقاومة قوية لمجابهته . وفي اماكن أخرى اتبع اساليب ما يمكن تسميته بـ « العنف الثوري » لردع الأعداء وارهابهم نفسياً وبذلك كان يحصل على « التشتيت المعنوي » الذي كان عاملاً اساسياً وحاسماً للحصول على « التشتيت المادي » وابطال مفعول مقاومة العدو . وفي اماكن أخرى ، كان تحرك عقبة بجيشه دون الاعلان عن هدفه ووضع مخططات الاعمال الهجومية موضع التنفيذ في اللحظة

المناسبة هو العامل الاساسي في استراتيجيته للحوب التشتينية . وكانت مجموعة مبادىء الحرب عند عقبة تخدم في الواقع استراتيجية الحرب التشتيتية وتضمن لها النجاح . وعلى ضوء هذا الواقع يمكن القول ان الحرب التشتيتية عند العرب المسلمين عامة — وعند عقبة خاصة نظراً لأن البحث هنا مختص بموضوع فن الحرب عند عقبة بن نافع — لم تكن مجرد محصلة لمجموع مبادىء الحرب ، وانما كانت هدفاً ووسيلة، هدفاً لتحقيق النصر ووسيلة لتوفير الفرص من أجل تطبيق مبادىء الحرب ، وهذا يوضح المرونة في تطبيق هذا المبدأ من مبادىء الحرب او ذاك بما يتوافق مع الموقف ويتكيف معه للوصول الى الهدف من استراتيجية الحرب التشتيتية وهو النجاح والنصر.. ولقد ظهرت اساليب الحرب التشتيتية بشكل متطور عند عقبة بن نافع في اكثر من موقعة ، فعندما وصل الى أقصى المغرب وانتهى الى السوس الادنى « مغرب طنجة » قاتل جموع البربر الكثيرة وقتل منهم قتلا ذريعاً « وبعث خيله في كل مكان هربوا اليه » وقد استخدم عقبة هنا استراتيجية الحرب التشتيتية على المستوى العملياتي حتى لا يسمح للبربر باعادة التجمع وتنظيم مقاومة قوية ، « وهذا يعني انه طبقها في مرحلة استثمار النصر » وكان قبل ذلك قد طبق استراتيجية الحرب التشتيتية على المستوى التكتيكي « التعبوي » للاغارة على كل مكان وبث السرايا في كل اتجاه « اثناء بناء القيروان » .

ان استراتيجية الحرب التشتيتية في مضمونها الحديث وفي

اطار الحرب النظامية « تعني الهجوم على جبهة واسعة وبالعمق » ولقد كان توغل عقبة في جميع حروبه نوعاً من استراتيجية الحرب التشتيتية ، كما ان تدابيره الاخرى تـدخل في اطار استراتيجية الحرب التشتيتية « للحروب الثورية » وبذلك كان تطبيق عقبة لمبدأ استراتيجية الحرب التشتيتية مزيجاً من الحروب النظامية والحروب الثورية في مضامينها الحديثة المتقدمة ، ولهذا يمكن اعتبار عقبة من رواد قادة العرب المسلمين في تطوير استخدام الاسس الاستراتيجية للحرب .

٦ – استراتيجية الهجمات الوقائية

كانت امبراطوريات العـالم القديم – والدولة الرومانية ثم البيزنطية منها خاصة – تقيم على حدودها سلسلة من التحصينات الدفاعية الثابتة التي عرفت في التاريخ العسكري باسم الليمات ، ومفردها « ليم – Lime » . وليس جدار الصين سوى نمـوذج لهذه التحصينات التي كانـت هدفها رد غارات المعتدين وحماية الحدود ضد كل هجوم مباغت . وكان يقيـم في الليم حامية تقوم بأمر الدفاع عن الحصن ، وكان هذا الدفاع يأخذ شكل الدفاع الثابت ، وعندما اخذ العرب المسلمون في تنظيم دولتهم ، وضعوا أساساً جديداً لحماية الحدود ، يتناسب مـع عقيدتهم القتالية الهجومية فأوجدوا نظام الثغور وغـزوات الصوائف والشواتي وبذلك عملوا على تنظيم الدفاع بعقلية هجومية فكانت « استراتيجية

الهجوم الوقائي . أو الهجوم الاجهاضي المسبق » . ويعود الفضل في هذا التنظيم القتالي والاسلوب المتطور الى عقلية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي وضع أساس تنظيم الثغور ووجه اول الصوائف والشواتي رداً على اعمال الروم العدوانية « عام ١٧ هـ – ٦٣٨ م » ثم طور معاوية بن أبي سفيان والي الشام وأمير المؤمنين فيما بعد هذا النظام القتالي ، وما لبث ان اصبح هذا الاسلوب القتالي عاماً في جميع المواقع والحدود المتاخمة لبلاد المسلمين المتصلة بحدود غير المسلمين . وكان عقبة بن نافع يدافع عن ثغر من الثغور ، فنظم اعماله القتالية ضمن إطار العقيدة القتالية للمسلمين ، فكان ينطلق بغزواته ويبعث سراياه حتى لا يترك لأعداء المسلمين الفرصة للوصول الى قاعدته . وان متابعة سيرة عقبة بن نافع ودراسة أعماله القتالية تظهران أن الروم « البيزنطيين » وانصارهم من الافارقة لم يجدان الفرصة للهجوم على قاعدة المسلمين طوال فترة ولاية عقبة لأفريقية ولمدة تزيد على الربع قرن ، ولكنهم وجدوا هذه الفرصة بعد وفاة عقبة واستشهاده في تهوذة حيث هاجم « كسيلة » قاعدة المسلمين « القيروان » مما كان له اسوأ النتائج على العرب المسلمين المرابطين في افريقية ، حيث اضطرت بعض القوى العربية للتراجع حتى وصلت مصر . ولقد كان تطبيق استراتيجية الهجمات الوقائية يرتبط في الواقع بقوة الدولة وضعفها الناتج في كثير من الاحيان عن الفتن والثورات الداخلية ، او فقد الهيمنة السياسية وتمزق

الوحدة السياسية في دولة العرب المسلمين ، او نتيجة لاستنزاف قوة العرب المسلمين على الجبهات الواسعة والتي كانت تزيد كثيراً عن قوة العرب المسلمين . ولهذا فان ما حدث لعقبة في افريقية قد تكرر حدوثه على حدود الشام الشمالية وعلى الحدود الشرقية في فارس « ايران » حيث كانت القوى المضادة للعرب المسلمين تجد في نفسها القوة مستفيدة من الضعف المرحلي لدولة العرب المسلمين فتنظم هجومها ضد ثغور المسلمين وقواعدهم **ومهما كان عليه الموقف ، فان استخدام استراتيجية الهجمات الوقائية للدفاع عن حدود المسلمين ، كان تطويراً كبيراً لفن الحرب .**
وقد اخذت بيزنطة كما اخذت الدولة الكارولنجية والميروفنجية بعدها « فرنسا » عن العرب هذا الاسلوب المتطور واستخدمته ضدهم . « وليست الهجمات الصليبية على قاعدة الاسلام ذاتها في الشام وفلسطين منها خاصة وعلى مصر سوى تطبيق لهذا المبدأ الذي طوره ووضع اسسه العرب المسلمون » . ولقد صوّر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي‌الله عنه هذا المبدأ بقوله «**اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا** » .
ولا حاجة للقول إن من أول نتائج تطبيق هــذا المبدأ هو نقل ويلات الحرب الى بلاد العدو مع ما يتبع ذلك من تخريب ودمار ، وحماية بلاد المسلمين من ويلات هذه الحرب ، علاوة على ما يحققه المهاجم من فوائد ماديــة ومعنوية أقلها « الاقتصاد بالقوى ، واحتمال نسبة من الخسائر أقل بكثير من تلك التي كان سيحتملها

لو لجأ الى الدفاع وانتظر هجوم العدو » ولقد كان لعقبة بن نافع مثله مثل بقية قادة العرب المسلمين ، المرابطين عـــلى الثغور ، المدافعين عــــن الحدود ، الفضل في وضع استراتيجية الهجمات الوقائية وتطويرها ، والاسهام بتطوير فــن الحرب عند العرب المسلمين

ب ــ في مبادىء الحرب

١ ــ المباغتة

المباغتة مبدأ من مبادىء الحرب القديمة والتي لا زالت تحتفظ بأهميتهـــا في الحرب التقليدية والحرب بأسلحة التدمير الشامل سواء بسواء . ولقــد كان البحث عن المباغتة ومحاولة الامساك بها هدف كل قائد مارس القيادة الميدانية وتمرس بالأعمال القتالية. وكان العرب أمة مقاتلة ، ثم جـــاء الاسلام ففرض القتال على المسلمين دفاعاً عن أنفسهم ومن أجل نشر راية الاسلام ، واعتمد العرب المسلمون مبادىء القتـــال وطبقوها ، وكان مبدأ المباغتة في طليعة المبادىء التي استخدمها قادتهم كلما توافرت لهم الظروف المناسبة لاستخدامها وحققوا بواسطتها بعض الانتصارات الحاسمة. وكان عقبة بن نافع قائداً عسكرياً أصيلاً عرف أهميـــة المباغتة وقدر قيمتها وما تتركه من أثر على الخصم فاستخدمها في عدد من معاركه وكانت وسيلة له أمكنه بواسطتهـــا إحراز رائـــع الانتصارات وحقق بها أفضل النتائج .

لقد شهد عقبة بن نافع الأثر الحاسم للمباغتة في حربه مع عمرو بن العاص عند فتح مصر في عدد من المواقع والمعارك ، وشهد مع عبد الله بن سعد بن ابي سرح ما حققته المباغتة من نصر حاسم[1]، فكانت هذه التجارب القتالية تثبيتاً لقناعاته وتأكيداً لمفاهيمه وترسيخاً لمبادئه ، فعندما تولى قيادته المستقلة في برقة وفي ولايته الثانية ، أفاد من هذا المبدأ .

وتشير الشواهد التي حفظها تاريخ حرب المسلمين — على قلة

---

(١) عندما وصل عبد الله بن سعد بن أبي سرح الى افريقية ، تولى قيادة جيش بلغ تعداده عشرين ألفا ، وسار بهم الى برقة ، فلقيهم عقبة بن نافع فيمن معه ، فساروا جميعا نحو افريقية ، وكان ملكهم (جرجير) يحكم مملكته الممتدة من طرابلس الى طنجة ، فجمع جيشا من مائة وعشرين ألفا وجابه جيش العرب المسلمين بمكان يدعى عقوبة (بينه وبين سبيطلة يوم وليلة) . وطال أمد الحرب مما أقلق أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فأرسل جيش (العبادلة) للدعم وفيهم عبد الله بن الزبير . وعندما وصل جيش العبادلة الى عقوبة ، اشترك في القتال ، ورأى عبد الله بن الزبير ان قتال المسلمين يبدأ من الصباح ويستمر حتى الظهر ، فاذا أذن الظهر ، عاد كل فريق الى خيامه . وعقد اجتماع للقادة ، فقال عبد الله بن الزبير (ان أمرنا يطول مع هؤلاء ، وهم في امداد متصلة ، وبلاد هي لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت ان نترك غدا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر الى أن يضجروا ويملوا، فاذا رجعوا الى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة ، فلعل الله ينصرنا عليهم) وطبقت هذه الخطة ، فكان النصر ، وكانت المباغتة العامل الحاسم في تمزيق جيش جرجير وقتله (احداث سنة ٢٦هـ — الكامل في التاريخ) .

ما وصل منها – إلى أن عقبة قد طبق المباغتة في عدد من معاركه ففي ولايته الأولى ، وعندما قصد خاور وحاصرها شهراً دون جدوى ، رفع الحصار عنها وتركها الى غيرها ، ثم عاد ومر بها وتركها حتى توقف على بعد مسيرة ثلاثة أيام ، وعندما ثبت له أن القوم قد اطمأنوا ، رجع عقبة الى خاور من غير طريقة التي كان أقبل منها ، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلاً ، فوجدهم مطمئنين قد تمهدوا في أسرابهم ، فاستباح ما في المدينة ، وقتل مقاتلتهم . ولقد تضمنت هذه المباغتة العملياتية نوعين من المباغتة « **المباغتة الزمنية** » حيث قاد عقبة قواته ليلاً . و « **المباغتة المكانية** » حيث اختار عقبة طريقاً لتحركه « غير الطريق التي كان قد أقبل منها » وبذلك ضمن لنفسه أسباب النصر .

وعندما رجع عقبة من الاطلسي الى القيروان ، واختار الطريق الصحراوي ، على خلاف ما كان متوقعاً ، حقق بذلك مباغتة أخرى ، وكانت أعماله الهجومية وتوغله العميق في كل عملية من أعماله القتالية تحمل في أعماقها مضمون المباغتة ، ولم تكن انتصاراته الحاسمة في ولايته الأولى الا نتيجة لاستخدامه المباغتة وتوغله بقوات خفيفة الى أعماق الصحراء فتم له افتتاح ودان وزويلة وغدامس وغيرها من أقاليم الصحراء ، وقد كانت المباغتة عند عقبة من العوامل التي ساعدته على تحطيم ميزان قوى التفوق عند أعدائه فضمن بذلك فرص النجاح .

٢ – أمن العمل

يرتبط أمن العمل بمبدأ المباغتة ، فالقائد الذي يقدر أهمية المباغتة ويعرف خطورة نتائجها على مسيرة الاعمال القتالية ، يعرف ايضاً ما يجب عليه اتخاذه من تدابير واجراءات مضادة لحماية قواته ضد كل ما هو غير متوقع،وما هو من طبيعة الحرب، وقد كان الرسول القائد يحرص باستمرار على اتخاذ التدابير الضرورية لتحقيق أمن العمل ، مما كان يوفر له قدراً كبيراً من حرية العمل ويساعده على تحقيق بقية مبادىء الحرب مما يتطلبه الموقف . واتبع أمراء المؤمنين وقادة العرب المسلمين سيرة النبي ﷺ في سلوكه وأساليبه عند ممارسته قيادة أعمال القتال واضطلاعه بشؤون الحرب .

طبق عقبة بن نافع مبدأ أمن العمل في كثير من المواقف ، ولم تكن اقامته الدائمة في برقة سوى مظهر من مظاهر أمن العمل، وتأخذ هذه الظاهرة في الواقع شكل أمن العمل المتعلق بمسرح العمليات حيث كان يوفر الحماية للجبهة الغربية « مصر » و وفقاً لهذا المضمون يكون عقبة قد مارس من خلال اقامته في برقة تحقيق أمن العمل على المستوى الاستراتيجي لحماية جبهة كاملة . فاذا تم تجاوز هذه الظاهرة، فسيظهر دور عقبة بن نافع في تحقيق أمن العمل على المستوى العملياتي من خلال ما كان يطبقه من اجراءات» ،**فقد كان أهل المدن مرابطون،ومن كان على البحر فهم حرس لهم** » وفي وصيته لأولادة « ومن احتاط سلم ونجا

فيمن نجا » وخلال بناء مدينة القيروان ، وضع عقبة في اعتباره احتمال قيام الروم بهجـــوم مباغت ، والناس منصرفون للبناء « فكان عقبة يغزو ويرسل السرايا ... حتى صارت القيروان مدينة كبيرة وعاصمـــة الاسلام في المغرب » وتلك هي بعض الشواهد لا كلها ، وهي كافيـة لاثبات تطبيق مبدأ أمن العمل على المستوى الاستراتيجي وعلى المستوى العملياتي وفي الاساليب التكتيكية. ولم يكن الامر الغريب ان يطبق عقبة بن نافع مبدأ أمن العمل على جميع المستويات ، بـل كان الامر غريباً حقاً لو أن عقبة لم يطبق هذا المبدأ بكل أبعاده ومضامينه . وحتى لو لم تتوافر الشواهد الكافية لاثبات هــذه الحقيقة — لسبب أو لآخر — لكان من الطبيعي افتراض قيام القائـــد عقبة بن نافع بتطبيق أقسى تدابير « أمن العمل » واكثرها دقة ، فقد بقي في ولايته الاولى زهاء ربع قرن لم ينكب المسلمون خلالها، ولم تنزل بهم نازلة ، وكانوا خلال هـذه المدة الطويلة في صراع مستمر ، وحرب متصلة ، مما يثبت بشكل غـير مباشر حرص عقبة على اتخاذ ما هو ضروري مـن اجراءات ، ومـا هو ضروري من تدابير لتحقيق النجاح في الاعمـال القتالية ، ولحماية المسلمين ، وكان « أمـن العمل » هو واحد في جمـلة مبادىء القتال التي استخدمها عقبة بمهارة وطبقها بدقة حتى امكن له تحقيق مخططاته والوصول الى اهدافه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقـد كان عقبة تلميذ

مدرسة الاسلام ، أُشرب مبادئها حتى اعماق نفسه ووجدانه ، وقد تميزت عقيدة الاسلام القتالية بجذرها الكبير في مواجهة الاعداء والتعامل معهم ، وتطبيق مبـــدأ أمن العمل حتى في أصعب الظروف واقساها « مثل السماح بجمع الصلاة ، وترك نصف المسلمين وقت الصلاة ظهيراً لمن يقومون بأداء فرض الصلاة ثم يتناوبون فيما بينهم » وغير ذلك من الاساليب والاعمال التي تضمن تحقيق مبدأ واحد هو « أمن العمل » . فكان من الطبيعي والحالة هذه ان تتميز قيادة عقبة بن نافع – مثله في ذلك مثل قادة المسلمين – بتطبيق مبادىء الحرب بدقة وحذر ، وبينها مبدأ « أمن العمل » فاذا جمعت بعد ذلك هذه الشواهد غير المباشرة ، الى الشواهد المباشرة التي حفظها لنا التاريخ عن اقوال عقبة وأعماله ، تكونت قناعة ثابتة في ان عقبة لم يهمل مبدأ « أمن العمل » او يسقطه من تخطيطه خلال ممارسته لأعماله القتالية ، وخلال نضاله غير المسلح لنشر الاسلام والمحافظة على المسلمين .

٣ – الحركية

من المحتمل أن تكون الصورة الاولى المقترنة في الذاكرة لمضمون الحركية هي تلك الأعمال القتالية الضخمة للقوات على جبهات واسعة وبأعماق كبيرة وصورتها في الحرب العالمية الثانية مناورات القائد الالماني روميل في المغرب العربي ما بين ليبيا وحدود مصر وكذلك الاجتياح السريع للقوات الالمانية ما بين

نهر الاودر وحتى ابواب موسكو ولينينغراد، وأقلها ذلك التحرك الرائع بداية من نهر الموز وحتى باريس واجتياح فرنسا وأوروبا كلها من قبل القوات الالمانية في بداية الحرب العالمية الثانية . ولكن الصورة المقصودة من الحركية عند العرب المسلمين هي صورة مختلفة تماماً ، فلقد وفرت وسائل التحرك السريعة « الطائرات، المدرعات ، الآليات والمركبات » كل الضرورات الاساسية لتأمين المرونة الكبرى في التحرك السريع وتطبيق مبدأ الحركية في أرفع مستوياته، **في حين أن الصورة للحركية العربية الاسلامية تقوم على الجهد** وعلى الارادة الصلبة وعلى الايمان العميق بالهدف **لتجاوز آلاف الكيلومترات في ظروف أقل ما هو معروف عنها الحرمان** من الموارد الحياتية وفي اطار من الصراع المرير القادر على استنزاف كل قوة – الا قوة العرب المسلمين المعتمدة في جوهرها وأساسها على انكار الذات والتضحية وتحمل كل الصعاب للوصول الى الهدف .

تركزت أعمال الفتح خلال ولاية عقبة الأولى على المناطق الصحراوية بالدرجة الاولى ، ومع افتراض التشابه في الطبيعة بين الصحراء العربية والصحراء الافريقية ، فانه ليس بالامكان انكار ما فرضته الضرورات الحركية من جهد ومن مصاعب غير محدودة – وهل هناك من ينكر ما تضمنته حركة خالد بن الوليد من العراق الى الشام عبر الصحراء من مشاق ومخاطر ؟ – ومما لا ريب فيه هو ان الحركية العالية التي تميزت بها قوات العرب

المسلمين خلال عملياتها في افريقية وفي قلب الصحراء بصورة خاصة هي احدى الظواهر الاساسية لعمليات العرب المسلمين ، فاذا أمكن تجاوز هذه الظاهرة ، فستبقى عمليات عقبة بن نافع خلال ولايته الثانية هي النموذج الرائع للحركية العالية عند العرب المسلمين ، فلقد تجاوز عقبة في مسيرته أكثر من الفي كيلومتر ، استغرقت جهد ما يقارب السنة ، تخللتها معارك ضارية واشتباكات مريرة كل ذلك علاوة على الصعوبات الخاصة بطبيعة الاقليم . وهذا ما يعطي للمرونة الحركية عند عقبة بن نافع طابعاً خاصاً ومميزاً يتجاوز جميع حدود التقديرات المعروفة لمضمون « الحركية » . ولم يكن تحرك عقبة بقوات قليلة أو مفارز محدودة ، وانما كان التحرك بجيش أقل تقديراته ١٥ الف أو يزيد . ومن هنا فان التحرك بهذه القوات طوال تلك المسافات الشاسعة ، والسيطرة على القوات في جميع الظروف والمواقف انما هو برهان واضح ودليل قاطع على المرونة الكبرى والحركية العالية التي تميزت بها قيادة عقبة . ولقد استطاع عقبة بفضل هذه الحركية أن يحقق انجازاً رائعاً أقل ميزاته هو أنه مهد السبيل لمن جاء بعده « وأبرزهم موسى بن نصير ، وطارق بن زياد » من أجل التوغل في المغرب العربي حتى نهايته ، والوصول الى المحيط الأطلسي ، واقامة كيان واحد في المغرب العربي كله . من هنا تظهر صعوبة مقارنة الحركية عند عقبة بن نافع بكل مضمون للحركية في المفهوم الحديث ، واذا كانت هناك امكانات للمقارنة بين الحركية عند عقبة بن نافع ، **فانه لا مجال لمقارنتها إلا بحركية**

مماثلة لقائد مماثل هو خالد بن الوليـد ، فكلاهما قاد قواته في ظروف صعبة ، وكلاهما اقتحم مخاطر الصحراء ومهالك المفاوز ، وكلاهما كان في حركيته نوع من المخاطرة وضرب من المجازفـــة ولكن خالد كان في جميع الأحوال على اتصال بقواعـد العرب المسلمين ، وغير بعيد من قوات أخرى للعرب المسلمين في حين كان عقبة منقطعاً عن المسلمين بينما خصومه وأعداءه في بلاد هي بلادهم وعلى اتصال مستمر بقواعد امدادهم ، وهذا مـا يعطي الحركية عند عقبة بن نافع طابعها المميز والفريد على كل ما عداها .

٤ – المبادأة ، واستخدام القوة الهجومية

ما كان الرسول القائد ينتظر في قاعدته حتى يهاجمه المشركون ، وما كان قادة العرب المسلمين ينتظرون ذلك ، وانما كانوا يحرصون على الامساك بالمبادأة بأيديهم ، وفرض المواقف عـلى اعدائهم ، مستفيدين من القوة الهجومية المتوافرة لديهم ، ومستثمرين القدرة الحركية التي يتميزون بها لمبادأة خصومهم ، ومباغتتهم ، وتحطيم ميزان التفوق لديهم وتحقيـق انتصاراتهم . ومـــا « غزوة العسرة »[١] التي قادها الرسول الاعظم بنفسه سوى نموذج رائع

---

(١) في السنة التاسعة للهجرة جمع الروم قواتهم وحشدوها في تبوك على حدود الشام بهدف الهجوم على قاعدة الاسلام في المدينة والقضاء علـى المسلمين ، وعلم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بتجمع الروم ، فأمر المسلمين جميعا بالخروج لمجابهة الروم حيث قدرت قوات المسلمين بثلاثين =

لتطبيق هذا المبدأ الاساسي من مبادىء الحرب ، كما لم تكن مواقف اكثر قادة العرب المسلمين سوى انسجام مع هذا المبدأ وتوافق معه . وكان عقبة في جملة قادة العرب المسلمين الذين حرصوا على المبادأة ، واستخدموا القوة الهجومية لتحقيق أهدافهم .

كان أهل « لواتة » قد صولحوا ، ثم نقضوا صلحهم في زمن معاوية بن أبي سفيان ، فغزاهم عقبة ، فتنحوا ناحية أطرابلس ، فقاتلهم عقبة حتى هزمهم. كما نقضت ودان عهدها الذي عاهدت عليه بسر بن أرطاة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، فسار عقبة اليهم في اربعمائة فارس ، وحاربهم حتى اخضع البلاد بلدا بلدا.

لقد كان عقبة يعرف ان نقض الصلح هو اعلان للحرب ، ولم يكن يترك الفرصة لخصومه حتى يتجمعوا ويشكلوا قوة يصعب التغلب عليها وانما كان يسرع بالتحرك الى خصومه ، فيحرمهم من المبادأة ، ويمسك هو بها ، ويستخدم قواته للهجوم لا للدفاع . وعندما كان عقبة يفرغ من اخضاع حركات التمرد،

=

الف مقاتل ولم يتخلف عن الغزوة سوى نفر قليل من المسلمين وفئة من المنافقين ، وقد سميت الغزوة بغزوة تبوك أو (غزوة العسرة) وقد تحرك المسلمون في الصيف القائظ حتى وصلوا تبوك ، مما حمل الروم على التراجع، والانسحاب دون قتال ، وصالح الرسول حاكم ايلة (ايلات) وأهالي اذرح، وحقق انتصارا حاسما دون حرب بفضل الامساك بالمبادأة واستخدام القوة الهجومية بشكل ناجح .

كان ينطلق كلما توفرت له الفرصة للافادة من قواته الهجومية فيعمل على فتح اقاليم جديدة . وبذلك اخضع خلال ولايته الاولى اكثر اقاليم افريقية. ويظهر استخدام عقبة لمبدأ «المبادأة واستخدام القوة الهجومية » بشكل اكثر وضوحاً فيما بعد فقد اعترضت مسيرة تقدمه مجموعات من المقاومات ، حاصر بعضها مدة تقارب الشهر وعندما عرف قوتها ولمس فيها الصمود، تركها الى غيرها ، واكتفى بما حققه من « احباط لارادة القتال عند خصومه » . ان ممارسة اعمال الفتوح تعني الانتقال الى البلاد التي يراد فتحها . وان الوصول الى بلد العدو « او بلاده » انما هو تحقيق للمبادأة واستخدام للقوة الهجومية بأوضح صورة وأعمق مضمون . ان المبادأة ، واستخدام القوة الهجومية ، علاوة على ما تحققانه من ميزات ، فانهما تعززان الروح المعنوية للمقاتلين ، ولم يكن العرب المسلمون في حاجة للحافز الذي يدعم روحهم المعنوية ، ولكن مما لا ريب فيه هو ان استخدام عقبة للمبادأة والافادة من القوة الهجومية للمسلمين قد ساعدتاه على دعم قوته وتطويرها والمحافظة على كفاءتها ، ويعتبر ذلك في جملة الاسباب التي دعمت مكانة عقبة ورسختها في نفوس المسلمين وضمنت له النجاح في قيادته طوال فترات سنوات الصراع التي حفلت بها حياته .

ان استخدام عقبة لما تحققه المبادأة من ميزات ، هو الذي ضمن له الاستقرار في قاعدته المتقدمة « برقة » ومن بعدها

« القيروان » وهو الذي مهد له السبيل لنشر الاسلام بين قبائل البربر ، وهو الذي ساعد على ازالة هيمنة الروم عن نفوس الافارقة ، فلم تعد قوة الروم هي القوة الوحيدة التي لا يعرف الافارقة غيرها في العالم، وانما هناك قوة أخرى قد جاءت لتفرض تحديها فوق رمال المغرب العربي وفي سهوله وجباله . واذا كان من الصعب اسناد أعمال النجاح كلها الى عامل واحد او الى مبدأ واحد من مبادىء الحرب فانه من المؤكد ان مبدأ استخدام القوة الهجومية وتطوير مضمون المبادأة ، هو في طليعة المبادىء التي حققت لعقبة امجاده وانتصاراته .

٥ – مبدأ الاقتصاد بالقوى

اعتمد قادة العرب المسلمين استراتيجية الحرص على العنصر العربي ، كاستراتيجية ثابتة عند التخطيط لأعمالهم القتالية . وكانت الترجمة العملية لهذه الاستراتيجية تطبيق مبدأ الاقتصاد بالقوى على المستوى العملياتي . واذا كان قادة العرب المسلمين على جانب كبير من الحرص في تطبيق هذا المبدأ لاسباب دينية « عقائدية » ولاسباب استراتيجية « هي ضعف العنصر العربي عددياً في مواجهة التحديات الضخمة التي كانت تجابه « المسلمين » فقد كان عقبة بن نافع اكثر احساساً بأهمية هذا المبدأ واكثر التزاماً بتطبيقه ، فقد كان يقف وحده في مواجهة التحديات الضخمة التي كان يواجهه بها التحالف البيزنطي – الافريقي «نسبة

الى تحالف الافارقة الساحليين مع الروم » وكانت الحامية العربية المكلفة بالعمل تحت قيادته غـــير متناسبة ابداً في حجمها مع الواجبات الثقيلة الملقاة على عاتقها . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان العناصر الحديثة العهد بالاسلام مـــن سكان البلاد « البربر » لم تكن قد تشربت عمـــق رسالة الاسلام فكان من الطبيعي ان يحرص عقبة على رعايتها وتجنبها قدر المستطاع كل ما من شأنه تفتيتها « مادياً او معنوياً » وهـــذا ما يوضح جانباً كبيراً من سلوك عقبة اثناء قيادته العملياتية وعند تنظيم اعمال القتال . ولقد اتخذ عقبة في قيادته اساليب محددة منها :

١ — عدم التفريط بالقوة التي يقودها ، او القيام بمغامرات غير محسوبة ، وتخصيص مـــا يكفي من القوى لتنفيذ الواجب « فعندما تمردت ودان على سبيل المثال سنة ٢٣ هـ ، لم يقد عقبة جيشه عبر الصحراء ، وانمـــا قام بعملية انتقاء واصطحب معه اربعمائة فارس واربعمائة جمل » .

٢ — عدم استخدام قوتـــه للاصطدام بالتحصينات القوية ، ومحاولة فتح التنظيمات الدفاعية نظراً لمـــا تتطلبه هذه العمليات من استنزاف كبير للقوى والوسائط. **فكان عقبة يحاصر المواقع الدفاعية لفترة محدودة ، فاذا لم تستسلم تركها ثم عـــاود الهجوم بصورة مباغتة** « كما فعل مع اهل خاور » .

٣ — المحافظة على قوة المسلمين مجمعة ، وعـــدم توزيعها على الحاميات والمواقع الدفاعية المعادية والمنتشرة على امتداد مئات

الكيلومترات ، ما بين القيروان والاطلسي ، ولا حاجة للقول بأن عقبة لو لم يفعل ذلك ، وعمل على توزيع قواته « بهدف حماية خطوط مواصلاته » لوصل الى المحيط الاطلسي ، وقد أسرف في نشر قواته حتى لم يبق معه من الجند من أحد .

٤ — قيادة عقبة لقوات المسلمين بنفسه في المعارك كلها تقريباً ، حتى يستطيع اتخاذ الاجراءات المناسبة لحماية قوات المسلمين ، وتظهر أهمية هذا السلوك الميداني عند تصور الظروف التي كان يقود فيها عقبة قواته حيث لم تكن هناك وسائط لقيادة القوات والسيطرة عليها .

٥ — تأمين القوات مادياً « وتوفير المتطلبات الحياتية » والموازنة بين هذا العامل وبين عامل الامن ومتطلبات العمليات. ومن ذلك اقدامه على تقسيم قواته وارسالها افواجاً افواجاً من « طبنة » الى القيروان بعد مسيرته الكبرى حتى البحر المحيط « الاطلسي » ، وحتى في هذه الظروف لم يكن عقبة ليرسل قواته « بأفواج صغيرة » الا بعد ان ضمن لها سلامة الطريق وأمن التحرك . ويظهر ذلك بوضوح مقدار حرص القائد عقبة على تطبيق **مبدأ الاقتصاد بالقوى في** حياته القيادية كلها . وقد يكون هذا المبدأ من اكثر المبادىء التي هيمنت على تفكير عقبة بن نافع القائد ، فاذا وضع هذا المبدأ من الناحيتين الاستراتيجية والعملياتية الى جانب ما عرف عن عقبة بن نافع من التقى والورع والحرص على المسلمين وايثاره حياة المسلمين على كل ما عداها من

متطلبات ، ظهرت حقيقة المأساة التي جابهها عقبة والتي انتهت بها حياته القيادية . ولقد وضعنا هنا سيرة عقبة بن نافع وتقاه وورعه جنباً الى جنب مع مبدأ الاقتصاد بالقوى كعوامل متكاملة في شخصية عقبة ولكن عقبة لم يكن كذلك في الواقع ، وانما كان قائدا مؤمناً مسلماً ، وكان ايمانه وعمق اسلامه هو الذي يحفزه الى تطبيق مبدأ الاقتصاد بالقوى في المواقف القتالية جميعها .

٦ ـ المحافظة على الهدف

جاء ترتيب مبدأ المحافظة على الهدف هنا في نهاية مبادىء الحرب عند دراسة حياة عقبة بن نافع القيادية ، وليس ذلك دليلاً على تناقص أهميته عن بقية المبادىء وانما ذلك بطبيعة الدراسة وضرورة اظهار العامل الشمولي في البحث بعد عرض المباديء التي يهيمن عليها هذا المبدأ . ويتصل مبدأ المحافظة على الهدف باستراتيجية « وضوح الهدف » حتى يمكن القول ان تطبيق مبدأ المحافظة على الهدف ـ في المستويات العملياتية والتكتيكية ـ انما هو تنفيذ لاستراتيجية وضوح الهدف . فالهدف الواضح هو الذي يدفع القيادات الى تحديد الاساليب القتالية والطرائق العملياتية المناسبة والتي تكفل تحقيق النجاح، ويأتي هذا النجاح ليعزز من قيمة الهدف مما يدفع القادة الى مزيد من التصميم للمحافظة على الهدف وبذلك يتحقق التكافؤ في طريق المعادلة « النجاح يعزز المبادىء والمبادىء تدعم النجاح وهكذا » .

ويظهر ذلك من ناحية أخرى التلاحم القوي بين الاسس الاستراتيجية وبين مبادىء الحرب ، كما يظهر مرة أخرى أيضاً التكامل الرائع للعقلية القتالية عند العرب المسلمين .

خرج عقبة ، وخرج المسلمون من جزيرتهم لتحقيق هدف واضح هو نشر الاسلام. واستقر عقبة في قاعدته « برقة »وأخذ مع من رافقه من الصحابة في نشر الاسلام بين القبائل ، وكان النضال السلمي « والجهاد الاكبر » هو الوسيلة التبادلية للصراع المسلح، فما الحرب إلا من أجل تحقيق ما كانت تعجز عنه الوسائل السلمية . ويبقى الهدف في الحالتين واحد رغم اختلاف الوسائل والأساليب . ونظراً لانطلاق عقبة في أعماله من قاعدة الايمان العميق بالهدف ووضوح الرؤيا (انظر وضوح الهدف) فقد بقي عقبة محافظاً على هدفه ، ثابتاً عند قناعاته حتى نهاية حياته وقد ترك عقبة في اقواله وفي أعماله ما يثبت بشكل قاطع محافظته على الهدف في حياته القيادية كلها . وكانت مبادىء الحرب من « مباغتة وأمن عمل وحركية ومبادأة واستخدام القوة الهجومية » كلها في اطار مضمون واحد هو خدمة الهدف والمحافظة عليه . ولعل ما يثير الانتباه هنا هو المرونة الكبرى التي اتبعها عقبة في المحافظة على الهدف، فهو لم يسلك سبيلاً واحداً أو طريقة محددة بشكل جامد ، وانما كان يعمل « بطريقة الاصطفاء » لاختيار هذه الوسيلة او تلك ولتطبيق هذا المبدأ من مبادىء الحرب او ذاك بما يتكيف مع الواقع ومع الظروف المحيطة ، فهو يسلك

طريق الردع النفسي عندما تكون هذه الوسيلة كافية وهو يلجأ الى زج قواته كلها عندما يتطلب الموقف ذلك ، ويستخدم ما هو كاف من القوات عنـدما لا يفرض الموقف استخدام كل القوات وهو يلجأ الى استراتيجية الهجوم الوقائي احياناً والى التوغل العميق احياناً أخرى ، كل ذلك في إطار مضمون واحـد هو (المحافظة على الهدف) .

ان ما سبق ذكره لا يمثل كل مبادىء الحرب التي استخدمها عقبة بن نافع في حروبه ، فهناك **مبدأ حشد القوى** ، واذا لم يتم تخصيص فقرة مستقلة لهذا المبدأ فذلك لأن عقبة لم يترك مـــن الشواهد ما يكفي في أقواله وأعماله ما يوضح اعتماده لهذا المبدأ. وفي الواقع ، فان المؤرخين العـــرب هم الذين لم يسجلوا دقائق الاحداث بشكل يوضح بشكل كاف هذه الناحية ولكن كثيراً من الاعمال تظهر بصورة غير مباشرة ، حتى لو لم يكن هناك براهين واضحة عليها . وليس من المقبول او المعقول ، أن يقود عقبة جيش المسلمين تلك الفترة الطويلة من حياته ، وان يخوض معاركه المتصلة دون استخدام دقيق لمبدأ حشد القوى . ومهما كان عليه الامر ، ومع استحالة طرح الفرضيات دون الاستناد الى أحداث تاريخية محـــددة – تتطلبها طبيعة البحث العلمي والدراسة الواقعية – فان مجموعة الشواهد عـن تطبيق مبادىء الحرب في الافق العملياتي،تتضمن مبادىء تابعة بصورة حتمية، سواء ظهرت هذه المبادىء بصورتها الواضحة أو بقيت فيحالتها الضمنية .

الفصل الثالث

آ ــ عقبة بن نافع وفن القيادة

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين »

(سورة القصص ـ الآية ٥)

١ ــ الاهتمام بالشؤون الادارية « اللوجيستيك »

ان الحديث عن القدرات الفكرية للقائد ، انما يعني معرفته لما هو ممكن ولما هو غير ممكن ، وهذا ما يتم عادة ببناء المعرفة الواسعة « بآليـــة الحرب » أي الطبوغرافيا ، وحركة الجيش والامداد والتموين الخ .. وهــذه هي الأسس الحقيقية للمعرفة

العسكرية، لا الاستراتيجية والتكتيك كما يعتقد كثير من الناس. ذلك ان اكثر الكتب العسكرية تضع الاستراتيجية وفن العمليات والتكتيك في مركز الصدارة على حساب الشؤون الادارية . ولو طرح سؤال على عشرة من الدارسين عن الخطوط العامة لحرب العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ السادس من تشرين الاول « اكتوبر » ١٩٧٣ م . لجاءت اجاباتهم متقاربة سواء في مجال الاستراتيجية أو في فن العمليات ، ولكن واحداً منهم قد يعرف **الجهد المبذول لتأمين القوات مادياً**، سواء بالنسبة لامداد القوات **بالمواد التموينية أو بمتطلبات الحرب** من أسلحة وذخائر، أو بالنسبة لعمليات اصلاح الآليات المعطلة والاسلحة واخلاء الجرحى والمصابين الخ ... وليس من الغريب بعد ذلك ان تحتل الشؤون الادارية المرتبة الاولى في ذهن القائد الناجح وفي تفكيره .

كان عقبة بن نافع من القادة الذين يعرفون أهمية الشؤون الادارية ، وينظمون تحركاتهم بتأثير هذا العامل ، فاذا كان خالد بن الوليد قد لجأ الى إرواء الإبل وتكميم أفواهها لقطع مفازة الصحراء فان عقبة « قد سار الى ودان في اربعمائة فارس واربعمائة جمل وثمانمائة قربة ماء على كل جمل قربتان » ولا ريب ان العامل الاداري هو الذي دفع عقبة الى ترك جيشه بغداش في أرض « سرت » وقيادة اربعمائة فارس فقط للتوغل في قلب الصحراء ، وهو إجراء لم يتبعه عقبة الا في قليل من عملياته . وعندما وضع عقبة أسس بناء القيروان وضع في اعتباره العامل

الاداري فقد اراد عقبة من القيروان « أن تكون محطاً لقوافل المسلمين ومراحاً لعسكرهم » وعندما اقترح بعض صحابة عقبة تغيير موقع القيروان أجابهم « لا بد لي من ذلك ، لأن أكثر دوابكم الإبل وهي التي تحمل عسكرنا، فاذا فرغنا نحن من أمرها لم يكن لنا بد من المغازي والجهاد ، ونفتح الأول منها فالأول ، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غارة البربر والنصارى » . وبتأثير العامل الاداري أيضاً اضطر عقبة الى ارسال قواته أفواجاً أفواجاً الى القيروان. وتكفي هذه الشواهد للبرهان على هيمنة **الفكر الاداري** على القائد عقبة بن نافع عند تخطيطه لعملياته وعند ممارسته لأعماله القيادية . وفي الواقع فان اهتمام قادة العرب المسلمين بالشؤون الادارية ، انما يرتبط بأساس عقيدة الاسلام القتالية وباستراتيجية «الحرص على العنصر العربي - دعامة الاسلام » وبمبدأ « الاقتصاد بالقوى » فالحرص على المسلمين وعدم توريطهم في موارد التهلكة ، هو الذي كان يحفز القادة دون استثناء لاستخدام الأسس الاستراتيجية ومبادىء الحرب التي تضمن سلامة المسلمين وفي طليعتها الاهتمام بالشؤون الادارية وقد ضرب الرسول القائد المثل الأعلى في الاهتمام بالشؤون الادارية عند تجهيز « جيش العسرة » في غزوة تبوك حيث دفع الصحابة « بعضهم » كل ما يملكون « ابو بكر » وبعضهم نصف ما يملكون « عمر بن الخطاب » وجميعهم قدم كل ما يستطيعه لتأمين الجيش وتوفير متطلباته. ولم يكن جيش عقبة ، كما لم تكن جيوش المسلمين جميعها من الجيوش المترفة التي تثقل تحركاتها

الاعباء الادارية وارتال الامداد والتموين « على نحو ما كان عليه جيش الروم البيزنطي في عهد الفتوحات الاسلامية » . ولقد كان الاهتمام بالشؤون الادارية عند قادة العرب المسلمين يتركز أساساً على المواد الحياتية للمقاتلين وخيولهم . ولكن ومهما كان عليه الموقف فان اهتمام عقبة بالشؤون الادارية انما يشكل نقطة مضيئة في حياة عقبة بن نافع القيادية ، رغم ان هذه النقطة كانت في جملة العوامل التي حملته على دفع حياته ثمناً لها .

٢ – القضاء على أعداء المسلمين

(أو ما يعرف حديثاً بالعنف الثوري)

استخدم الرسول القائد ما يسمى حديثاً « بالعنف الثوري » للقضاء على خصوم الاسلام،وقصته مع اليهودي كعب بن الاشرف معروفة مشهورة [١] واستخدم قادة العرب المسلمين ، وخالد بن الوليد منهم خاصة هذا الاسلوب في حروبه . ففي موقعة أليس

---

(١) كان كعب بن الاشرف اليهودي شاعرا ، وكان يهجو الرسول ويحرض عليه ، وقد تمادى في ايذاء الرسول والمسلمين حتى انه شبب بنسائهم،فقال الرسول (من لي بابن الاشرف ، فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا ، وقد خرج الى المشركين فجمعهم على قتالنا) فقال محمد بن مسلمة (يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟) فقال (فافعل ولا تعجل حتى تشاور سعد بن معاذ) ووضع بعض المسلمين خطة لقتله ، ونفذوها ٠ وكان لمقتله اثر كبير في معنويات اليهود في المدينة ، فأصبح المسلمون وقد خافت اليهود لوقعتهم بعدو الله، فليس في المدينة يهودي الا وهو خائف على نفسه ٠

على الفرات « صفر سنة ١٢ هـ – ٦٣٧ م » أظهـــر العرب من أنصار الفرس مقاومة كبـيرة وعناداً في القتال ، فأقسم خالد بقوله « اللهم ان لك علي إن منحتني أكتافهم ألا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم » . وعندما انتهت المعركة بانتصار المسلمين ، أصدر خالد أوامره بالمطاردة . وأسر ٧٠ ألفاً عمل على ابادتهم وقتلهم على نهر الفرات حتى سمي رافده بنهر الدم . وفي موقعة عين التمر استخدم خالد ايضاً الاسلوب ذاته لارهاب خصوم المسلمين [1] . وفي يوم دومة الجندل كرر خالد العملية ذاتها [2] ونجح بواسطتها في تحقيق نصر حاسم .

وقد لجأ عقبة بن نافع ايضاً الى استخدام اسلوب القضاء على أعداء المسلمين أو ارهابهم فقطع أذن أحد القادة وقال له « ذلك

---

(١) حدثت موقعة عين التمر عام ١٢هـ ايضا ، وفيها تولى عقة بن أبي عقة قيادة قبائل النمر وتغلب واياد للوقوف الى جانب الفرس ضد المسلمين، واستطاع خالد أسر عقة مع بداية الاشتباك فهرب المقاتلون الى الحصـون ، فأسرع خالد الى قتل عقة والقائه على الجسر حيث يراه الاسرى ثم دعا بعمرو بن الصعق من قادة العرب انصار الفرس ايضا فضرب عنقه وألقى به الى جانب عقة ، فلم تلبث المقاومة ان انهارت ، واستسلم المقاتلون في الحصن .

(٢) دومة الجندل في العراق ومعركتها في عام ١٢هـ . وقد ألقى خالد القبض على الجودي بن ربيعة وعلى الاقرع بن حابس وأخذهما أسيرين ، كما نجح في أسر عدد كبير من المقاتلين وهرب الفرس وانصارهم مـن العـرب والتجؤوا الى أسوار دومة الجندل وتقدم خالد بجيشه وأمر بالاسرى فضربت أعناقهم واحدا واحدا تحت بصر المقاتلين فـي الحصون فانهـارت مقاومتهـم واستسلموا للعرب المسلمين .

ادباً لك حتى اذا مسست أذنك ذكرته فلا تحارب العرب » .
وحال بين احد ملوك البربر وبين موكبه وأرغمه على السير حتى اصابه التعب واصبح يبصق دماً ، وقال له مثل قوله السابق .
وكرر هذه العملية ايضاً مع ملك كاور ، فقطع له اصبعه وقال له ايضاً « هذا أدب لك اذا انت نظرت الى اصبعك لم تحارب العرب » . ولقد كان عقبة في الواقع أقل قسوة في حروبه من خالد بن الوليد . وكان اسلوبه في الارهاب أقرب الى الردع النفسي منه الى العنف الثوري بمضمون الابادة ، فكان يحرص على ادخال الرهبة في قلوب أعداء المسلمين مع ترك الفرصة لهم على اساس احتمال انضمامهم للمسلمين وفي الوقت ذاته إضعاف مكانتهم القيادية بهدف اخضاعهم أمام أنصارهم مما يزيل جبروتهم وهيمنتهم القوية ويسمح للمسلمين بالتوغل في صفوفهم لتوجيههم وهدايتهم.
ولقد لجأ عقبة لاستخدام هذا الاسلوب ذاته مع كسيلة، ولم يكن إرغامه على « سلخ الشاة » والاستهانة به إلا وسيلة لاضعافه وحرمانه من امتيازاته التي قد تساعده على تشكيل مركز من مراكز القوى التي تهدد العرب المسلمين . ولم يكن فشل هذه الوسيلة في معاملة كسيلة تابعاً لفشل الاسلوب بقدر ما كان تابعاً لمجموعة العوامل الخارجية وفي طليعتها وجود قوة الروم وتحريضهم لكسيلة على الثورة . وقد كان لدى كسيلة هذا الاستعداد ، حتى لو لم يقدم عقبة بن نافع على معاملته باسلوب الارهاب .

٣ ـ التحريض والحض على القتال

يجد القائد نفسه في كثير من المواقف أمام عوامل قد تؤثر على الروح المعنوية لقواتـــه، فيكون لسلوكه، وأقواله، وقراراته الدور الحاسم في تطوير هـذه المواقف وتصعيد ارادة القتال عند المحاربـين، ولعل هذا الدور من ابرز الأدوار التي يمارسها القادة في الفترات الصعبة من الصراع المسلح. ولقد عرف عن الرسول القائد، كما عرف عن قادة المسلمين ادوارهم في الحض على القتــال وتحريض المسلمين على الحرب. ويكتسب التحريض أهمية خاصة عندمــا يكون وثيق الصلة بهدف الحرب، مرتبط بالموقف الراهن الذي تتم مجابهته. وكان عقبة بن نافع قائداً مميزاً في هذا المضار. فقد كان يقف على رأس قواته يستثير حماستهـا ويحدد لهــا أهدافها ويذكرها بواجباتها ويطرح عليها خطورة الموقف فيدفعها الى اقتحام المواقف أصعبها، والأزمات أشدها، ويخرج من ذلك كله وقد حمل للمسلمين نصراً فيه بعضاً من التعويض عن التضحيات وعـــن المشاق التي احتملها المسلمون في حروبهم وصراعهم المسلح. فعندما ودع عقبة أهله في القيروان. كان مما قاله «اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهـــاد رحمتي ودار كرامتي عندك» وعندما جابه عقبة قوات الروم وانصارهم في تاهرت، وعرف صعوبـــة الموقف الذي يجابهه وقف يحرض مقاتليه ويحضهم على القتال بقوله «انكم لم تبلغوا هذه البلاد الا طلباً لرضاه واعزازاً لدينه فأبشروا. فكلما كثر العدو كان

أخزى لهم وأذل ان شاء الله تعالى ، وربكم عز وجل لا يسلمكم ، فالقوهم بقلوب صادقة » واقتحم المسلمون المعركة واستطاعوا بايمانهم تحطيم ميزان تفوق عدوهم ، وانتزعوا انتصارهم . ولا حاجة للقول انه لم يكن لكلمات عقبة أو أعماله أية قيمة لولم تكن صادرة عن قلب عامر بالايمان ، فتدخل القلوب المؤمنة وتدفعها الى القتال . وعندما وصل عقبة الى المحيط الاطلسي في أقصى المغرب وقف والمؤمنين المسلمين أمام مياه المحيط ، ورفع يديه بالدعاء « اللهم اني لم أخرج بطراً ولا أشراً ... وانك لتعلم انما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين ، وهو أن تعبد ولا يشرك بك شيء ، اللهم انا معاندون لدين الكفر ومدافعون عن دين الاسلام فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والاكرام ». لقد تحمل عقبة والمسلمون معه من المشاق ما لا قبل لأحد باحتماله ، فعاد عقبة ليذكرهم بسبب خروجهم وغايته « اللهم اني لم أخرج بطراً ، ولا أشراً » وأمام هذا السبب ، وأمام هذه الغاية ، تهون المصاعب كلها ، وتزول آثار المشاق كلها . ثم هو يشدد في تحريضه على ما يتطلبه الموقف من عناد لمجابهة التحديات « معاندون لدين الكفر ، مدافعون عن دين الاسلام » وهو يترك الأمر في النهاية والبداية لارادة الله ، ولكنه يلتمس من العزيز القدير القوة « فكن لنا ولا تكن علينا » وهكذا وبكلمات قليلة ، جمع عقبة كل العوامل الكافية للتحريض على الحرب والحض على القتال .

ويرتبط الحض على القتال بالحرب النفسية ، وبالموقف النفسي

للقائد والقوات معاً . فالتحريض يرتبط بشخص القائد وبقوة اقناعه و كفاءته القيادية وبقدر ما يوحيه من الثقة والطمأنينة للمقاتلين المجاهدين تحت رايته ، كما يرتبط التحريض بالحالة النفسية للمقاتلين ، ومدى حاجتهم للتحريض وهنا تكمن مهارة القائد في تحسس مشاعر المقاتلين ومعرفة نوازعهم . ولم يكن عقبة بن نافع في حاجة لمعرفة حقيقة مشاعر المؤمنين المجاهدين ، فهو يعيش معهم ، ويعاني معهم ما يعانون ويحتمل معهم ما يحتملون . ومن هنا يظهر التجاوب الكامل بين القائد عقبة وبين صحبه من المقاتلين المجاهدين .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان التحريض على الحرب والحض على القتال يفرض على القائد أن يرتفع عن مستوى الأحداث التي يصنعها لتتوافر له النظرة الشمولية للموقف، وحتى يستطيع الهيمنة على هذا الموقف، وكان عقبة في حياته دائماً فوق مستوى الأحداث التي يصنعها وبذلك ضمن لنفسه وللمسلمين فرص النجاح والنصر .

٤ - الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر

أنا النبي لا كذب   انا ابن عبد المطلب

قالها الرسول الأعظم في غزوة حنين وحصار الطائف،حيث أحيط بالمسلمين ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، وبلغت القلوب الحناجر ، فثبت الرسول في مكانه وهو يرتجز ، ويقول « أين

أيها الناس ؟ هلموا إلي ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » . وكان لهذا الموقف الشجاع أثره في ايقاظ المسلمين من ذهولهم ، والعودة الى الرسول القائد ، والالتفاف حوله ، والقتال حتى النصر ، وبذلك كان لشجاعة الرسول في مواجهة الخوف الدور الحاسم في تحويل الموقف من الهزيمة الى النصر .

وقد جابه أمير المؤمنين الخليفة أبا بكر مثل هذا الموقف عندما انتفضت الجزيرة من اقصاها الى اقصاها على أثر وفاة الرسول العربي محمد ﷺ ، وأخذت جموع المشركين في الزحف الى المدينة للقضاء على شعلة الاسلام ، فكان لشجاعة أبي بكر في مواجهة الخوف الدور الأول والأخير في تحويل الموقف ، كما شهد قادة العرب المسلمين الكثير من المواقف الخطرة والتي تثير الخوف في قلوب اكثر الناس شجاعة وحماسة . وكان لشجاعتهم في مواجهة الخوف الأثر الكبير في تحويل المواقف اليائسة الى مواقف مظفرة . ولم تكن المواقف التي جابهها عقبة بن نافع أقل من هذه المواقف حرجاً وخطورة ، ذلك انه كان يقف طوال فترة ولايته أمام تجمع للروم وانصارهم وكان هذا التجمع يتفوق عليه بالقوى والوسائط ، وكان هو في عزلة عن بلاد المسلمين وهذا كاف لاثارة المخاوف التي يتطلب قهرها قدراً كبيراً من الشجاعة . وفي هجوم عقبة على تلمسان « انضم الروم الى البربر ، وخرجوا في جيش ضخم لجب ، والتحم القتال ، ووقع الصبر ، حتى ظن المسلمون أنه الفناء » . وفي تاهرت ، استغاث الروم

بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، وكثر جمعهم « والتقى المسلمون بأعدائهم ، وقاتلوهم قتـــالاً شديداً ، فاشتد الامر على المسلمين لكثرة العدو ولكنهم انتصروا أخيراً » . ووصلت الشجاعة في مواجهة الخوف ذروتها عند القائد عقبة بن نافع في معركة تهوذة، حيث وقف في مجابهة تجمع ضخم وتكتل كبـير ، وعرف أنها النهاية الحتمية فلم يتراجع او يحاول التملص ، او يعمل عـــلى الفرار مما قد يسيء الى الروح المعنوية لبقيـــة قوى المسلمين . « فكسر عقبة والمسلمون اجفان سيوفهم وتقدموا الى البربر وقاتلوهم ، فقتل المسلمون جميعهم ومعهم عقبـــة » . ولم يكن باستطاعة عقبة القائد، التملص من المعركة او الانسحاب من القتال وهو الانسان المؤمن بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) [١] . وكان لعقبـــة أسوة حسنة بالرسول الأعظم في غزوة حنين [٢] حيث صمد الرسول وقلة من المسلمين معه حتى كتب الله لهم النصر . ومهما كان عليه الموقف، فالقتل والقتال من طبيعة الحرب ، والاستشهاد والشهادة مـــن بعض

---

(١) سورة الانفال ــ الآية ١٥ .

(٢) وهي الغزوة التي نزل فيها قوله تعالى (ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين ، اذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الارض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين) صدق الله العظيم . انظر الفقرة السابقة (الحض على القتال) .

ظواهرها . ولكن ما هو غير طبيعي البحث في الحرب عن تحقيق الهدف دون وضع احتمال القتل والاستشهاد . وكان عقبة مقاتلاً قبل ان يكون قائداً ، ومجاهداً قبل ان يكون والياً ، فكانت نظرته الى القتل والشهادة منطلقة من ايمانه العميق بحتمية القضاء والقدر . وكان ذلك مصدر شجاعته في مواجهة الخوف حتى في اصعب الظروف واكثرها قسوة ، وكان هذا العامل عند القائد عقبة بن نافع مصدر ثقة للمجاهدين في جيش عقبة ومصدراً من مصادر روحهم المعنوية . كما كان له أثره في إحباط ارادة القتال عند اعداء المسلمين .

وبعد ، فالخوف والشجاعة من العواطف الانسانية الطبيعية والخوف هو أمر طبيعي يتطلب قهره استخدام الارادة والاستعانة بالشجاعة . وقد تميز عقبة القائد بارادة قوية وحازمة ، وايمان راسخ عميق ، أصبحت معه عاطفة الخوف وانفعالاتها بعيدة كل البعد عن التأثير في قرارات عقبة ومواقفه .

٥ — القرارات الصحيحة

القائد هو القرار ، واتخاذ القرار هو العمل الطبيعي للقائد ، ويتميز قائد عن قائد آخر بقدرته على اتخاذ القرار والحرص على تنفيذه . وليس اتخاذ القرار في حد ذاته هو الذي يظهر كفاءة القائد، وانما تظهر هذه الكفاءة من خلال «**القرارات الصحيحة**» وتعتمد عملية اتخاذ القرارات الصحيحة **على تقدير الموقف الصحيح**

المستند الى مجموعة من المعطيات والعوامل أقلها المعرفة الثابتة لقوة الاصدقاء والمعرفة الدقيقة لموقف العدو وطبيعته ، وتسلحه وقواه المعنوية وتصميمه على القتال. علاوة على المعرفة الضرورية لمسرح عمليات القتال وطبيعته الجغرافية ومواردة الاقتصادية والحياتية ، وكذلك معرفة المناخ وغير ذلك من العوامل التي يستند اليها تقدير الموقف . ويظهر ذلك الأثر الكبير للقائد في احراز النصر أو في الحاق الهزيمة بقواته حتى شاع القول « بأنه لا توجد معركة فاشلة فيما اذا صمم القائد على كسبها وتحقيق النصر فيها » وعلى الرغم مما يتضمنه هذا القول من مبالغة هدفها اظهار الدور الكبير للقائد دون الأخذ ببقية العوامل . كموقف القوات وحجمها وتسلحها وموقف الخصم منها » الا ان هذا القول يحمل قدراً كبيراً من الصحة . فاذا عرف ذلك ، وعرف ان عقبة قد خاض صراعه المرير وقاد معاركه القاسية في ظروف غير متكافئة في كثير من الأحيان وخرج من ذلك كله بتسجيل انتصارات حاسمة ومتصلة على امتداد ربع قرن تقريباً ، دون أن ينكب المسلمون خلالها أو تنزل بهم نازلة ، أمكن القول دون ريبة أو شك ، في أن عقبة بن نافع كان قائداً مميزاً بكفاءته في اتخاذ القرارات الصحيحة . فاذا تجاوزنا هذا الطرح النظري لمتابعة أعمال القائد عقبة خلال ممارسته لقيادته تكونت القناعة الثابتة بنجاح عقبة الرائع في اتخاذ القرارات الصحيحة كلها وفي جميع المواقف المتنوعة والظروف المختلفة « وليس بقاء القيروان عامرة في بنيانها ، راسخة في إيمانها ، رغم ما تعرضت له من نكبات

وما جابهته من تحديات سوى برهان عـــلى صحة قرار عقبة في اختيار المكان الصحيح لبناء قاعدة المسلمين المتقدمة » . وكانت القرارات الصحيحة لعقبة بن نافع متميزة بصدورها عن شخصية ثابتة ، اتصفت خلال ممارستها لقيادتها بالاتزال والبعد عن التحول والاضطراب والتردد . وهذا ما كان يعطي لقرارات عقبة قوتها ، ويظهر الثبات في شخصية عقبة من خلال مواقف كثيرة ابرزها موقفه من ابي المهاجر دينار ، حيث كان أول عمل له بعد عودته الأخذ بأبي المهاجر ووضعه في القيود . وكذلك فانه عندما تهدد أبي المهاجر بعد اطلاق سراحه « أصبح أبو المهاجر خائفاً » وهذا يدل على ان الذين كانوا يعرفون عقبة ، كانوا يعرفون فيــه ثبات الشخصية ، ويعرفون فيــه الصدق في الوعيد والتهديد . واذا كان هذا موقف شخصي من عقبة فهناك مواقف عامة تؤيد هذا الاتجـــاه « ومنها موقفه من معارضيه في اختيـــار موقع القيروان » وموقفه من أبي المهاجر يوم نصحه بالحذر من كسيلة . ويبرهن ذلك كله على ان عقبة كان متميزاً بثبات الشخصية في مواقفه الخاصة ومواقفه العامة . **وهنا لا بد من التمييز بين الثبات في الشخصية وبين العناد** ، فالثبات انما هو نتيجة لاتخاذ القرار بناء على معطيات كثيرة وبناء على دراسة شاملة للموقف ، في حين أن العنـــاد يستند الى منطلقات عاطفية تفتقر الى الرابطة المنطقية والحجج العقلانية . وان الشواهد المتوافرة تثبت أن قيادة عقبة تميزت بالثبات ولم تتميز بالعناد وهـــذا ما كان يعطي قراراته الصحيحة أهميتها فتحمل المجاهدين العاملين معه للخضوع لارادته

والنزول عند رأيه والانقياد له عن قناعة وتلك هي من أهم عوامل نجاح عقبة في ممارسة القيادة . وقد يستطيع قائد من القادة كسب رضى قواته، بعضها أو كلها، خلال فترة محددة إما لنجاحه في عمل معين أو نتيجة لموقف من المواقف ، ولكن قليلون هم القادة الذين استطاعوا الحصول على ثقة قواتهم كلها في حياتهم وبعد استشهادهم وقد كان عقبة واحداً من هؤلاء القادة ولا ريب في أن قرارات عقبة الصحيحة هي التي كانت تثير اعجاب قواته وتجلب ثقتهم فكان بذلك من القادة الخالدين .

٦ – حماية المرؤوسين

تعتبر حماية المرؤوسين،واجب من واجبات القائد الاساسية، ذلك لانها تحقق مبدأ الاقتصاد بالقوى . ويتخذ القائد ما هو ضروري من اجراءات الامن وتدابير الحيطة لضمان حماية مرؤوسيه في كل الاوقات ، وفي جميع الظروف ، في السلم كما في الحرب . ويتخذ هذا المبدأ اهمية خاصة عند العرب المسلمين بسبب اعتمادهم على استراتيجية المحافظةعلى العنصر العربي بصورة اساسية في صراعهم المسلح . فكان من توصيات أمراء المسلمين لقادتهم « لا ترسل طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة او ضيعة او نكاية »[١] « ولا تقدم المسلمين الى هلكة رجاء

---

(١) من وصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى قائده سعد بن أبي وقاص – العقد الفريد ١/ ٤٠ .

غنيمة ، واياك وإلقاء المسلمين في الهلكة ... ولا تبعث سرية الا في كثف من الناس »[1] « وتبصر الله بمن معك من المسلمين .. فان رجلاً من المسلمين أحب إلي من مائة ألف دينار »[2] .

وكان القائد عقبة بن نافع يتخذ كل ما يستطيع قائد اتخاذه من تدابير لحماية مرؤوسيه ، ولم تكن قيادتـه المباشرة للاعمال القتالية كبـيرها وصغيرها سوى ظاهرة تشير الى تأمين حمايته لمرؤوسيه بنفسه ، ولم يكن ذلك عن ضعف ثقته بقادته بقدر ما كان ناتجاً عن حرصه على مشاركته لمرؤوسيه بنفسه ، ولم يكن ذلك عن ضعف ثقته بقادته بقدر ما كان ناتجاً عن حرصه على مشاركته لمرؤوسيه في تحمل المشاق وتأمين الحماية لهـم ، ولعل أفضل صورة لتدابير القائد عقبة بن نافع في حماية مرؤوسيه هو اجراؤه في ارسال قواته الى القيروان على التتابع بعد تأمين محور تحركهم والبقاء مع القوة التي تضطلع بحمايـــة مؤخرة المسلمين « الساقة » . وكان باستطاعة عقبة التحرك مـع اول فوج يعبر مفازة الصحراء للوصول الى القيروان او التحرك مـع أي فوج بعدها ، والاكتفاء بما اتخذه من تدابير الحيطة ، وتكليف أحد قادته بالبقاء مع الساقة ، ولكن بقاءه مـع الساقة « المؤخرة »

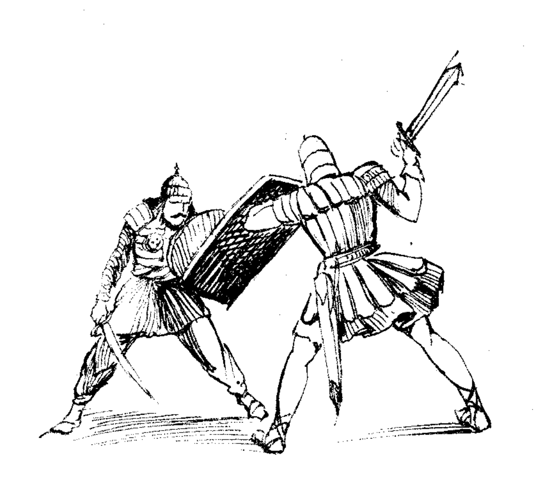
---

(١) من وصية خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة ــ الطبري ٤/٥٤ .

(٢) من وصية الخليفة عمر بن الخطاب الى النعمان بن مقرن وقد وجهه لفتح نهاوند ، ٢١هـ .

وحتى النهاية انما هو دليل قاطع على حرص عقبة بن نافع على تأمين الحماية لقواته حتى لو كان ذلك سيكلفه حياته . « وتثير هذه النقطة بالذات كثيراً من النقاش والحوار والجدل حول الفائدة من بقاء عقبة حتى النهاية مما تسبب باستشهاده في وقت كان المسلمون في المغرب العربي أحوج ما يكونون الى قيادته . فالقائد هو القرار (انظر اتخاذ القرارات الصحيحة) ولم يكن هناك في جيش المسلمين من يستطيع ممارسة دوره القيادي والاضطلاع بأعبائه ، فكانت خسارة المسلمين به تزيد كثيراً على خسارتهم فيما لو فقدوا الساقة وقوة من الجيش مع بقاء عقبة على رأس قواته » . ولا مجال هنا لمناقشة وجهة النظر هذه بالنسبة للانسان المؤمن المسلم ، فهي تتصل بعقيدة الاسلام والايمان بقدره وحتمية هذا القدر ، ولكن بالامكان القول أن عقبة قد اتخذ من التدابير كل ما هو ضروري لتأمين الحماية لقواته ولنفسه ، وكان بقاؤه مع الساقة يتوافق مع ما تتضمنه العقائد القتالية قديمها وحديثها « **في ضرورة وجود القائد مع القوة المكلفة بتنفيذ الواجب الاكثر خطورة** ، ومع القوة المكلفة بتنفيذ الواجب الرئيسي ، وكانت الساقة هنا هي التي تضطلع بالواجب الرئيسي ، فكان من الطبيعي ان يبقى مع هذه القوة ، بل إن وجوده مع غيرها كان هو الامر غير الطبيعي » . وكان في بقاء عقبة نوعاً من المجازفة وضرباً من المغامرة ، ولكن ماذا يبقى للقائد من صفات القيادة إن هو لم يكن قادراً على اقتحام المجازفة المحسوبة والمغامرة المقدرة . ولا حاجة للقول بأن في استطاعة كل قائد

متوسط القدرات والكفاءات اتخاذ القرارات المناسبة ، ولكن قلة هم القادة الذين يضعون قراراتهم ويشرفون عـــلى تنفيذها ويستطيعون الموازنة بين الهدف وبـين المجازفة باقتحام خطر محتمل تثبت الظروف القتالية صحة وجوده او عدم وجوده ، وكان القائد عقبة بن نافع نموذجاً لهذه القلة الـــتي عرفها تاريخ الحرب. ويكفي القول ان عقبة بسلوكه قد حدد المكان الصحيح لوجود القائد قبل ان تنص التعليمات القتالية وعقائـــد الحرب الحديثة على مكان القائد بأكثر من ألف عام .



ب ـ عقبة بن نافع
وقوات العرب المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال

(فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل الله ، فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) [١] صدق الله العظيم .. وهكذا فرض الله تعالى القتال على المسلمين . فانطلقوا من جزيرتهم ، يحفزهم الإيمان العميق لتحقيق النصر أو الشهادة ، وتلك هي الميزة الأولى والاخيرة التي ميزت جيوش العرب المسلمين عن بقية الجيوش في القديم والحديث . وقد قاد عقبة بن نافع جيشاً من جيوش المسلمين ، وحقق بقيادته نصراً بعد نصر ، حتى « أخضع افريقية كلها » . ولم يكن ذلك ممكناً لولا وجود بعض من العوامل المشتركة بين القائد وجيشه وفي طليعتها « الاستعداد الدائم للقتال » . فقد

---

(١) سورة النساء ـ الآية ٧٣ .

خرج العرب المسلمون من جزيرتهم، وقد حددوا هدفهم، وعرفوا مبلغ ما يتطلبه تحقيق هـذا الهدف من تضحيات، وكانوا على استعداد كامل « لشراء الحياة الدنيا بالآخرة » وهذا ما يوضح سبب استعدادهم الدائم للقتال .

لقد برهن تاريخ الحرب أن باستطاعة القائد العظيم تكوين الجيوش وتنظيمها وقيادتها نحو النصر، ولكن ليس باستطاعة كل قائد الاضطلاع بهذا الدور وممارسته، وكان عقبة قائداً عظيماً استطاع تنظيم جيشه وقيادته في ظروف أقل ما يقال فيها انها ظروف غير عادية . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان قلة من الجيوش قديمها وحديثها هي التي استطاعت تكوين أجهزة قيادية، أو دعم القيادات والتجاوب معها بعمق لتحقيق النصر، وكانت جيوش المسلمين من هذه القلة وهذا ما يوضح ظهور « كادرات » قيادية كثيرة وظهور جيش من القادة العظام كلهم على مستوى عال من الكفاءة القيادية . فكان عقبة قائداً في جيش قادة العرب المسلمين **وهذا التوافق بين الاستعداد الدائم للقتال عند القوات والكفاءة العالية عند القادة** هو الذي كان يحقق النصر . لقد كان عقبة بن نافع قائداً على درجة عالية من القدرة والكفاءة، ولكن هل كان باستطاعة عقبة تحقيق مثل تلك الانتصارات والوصول الى مثل تلك النتائج لولم يتوافر له جيش مثل جيش المسلمين في المغرب العربي ؟. ان القادة هم المنارات في حياة الشعوب وهم الذين يحققون للشعوب تطلعاتها .

ولكن اذا لم تكن هناك تطلعات لهذه الشعوب فهل بامكان القادة الاضطلاع بدورهم . ولقد جـــاء الاسلام فوضع للأمة العربية تطلعاتها وحدد لها أهدافها فتكونت قاعدة من المؤمنين المسلمين المجاهدين ، تفاعلت عن ظهور قـادة لم يعرف التاريخ لهم مثيلاً في كفاءتهم وعددهم حتى استطاعوا فتح العـالم القديم في فترة لا تزيد عن الثمانين عاماً .« ويطرح هذا الموقف حقيقة رائعة ،وهي ان جيشاًمن الأسود لا يستطيع حمل قيادته إلا قائد متميز ، لاسيما في عهد كانت ممارسة القيادة فيه تتطلب وجود القائد في المقدمة لتوجيهها لا البقاء في الخلف لدفعها ، وفي مثل هذا الموقف فانه ليس بامكان القائـــد قيادة القوات إلا اذا كان من أكثر افراد القوات كفاءة ، وأوفرهم شجاعـة ، وأشدهم صبراً على المكاره وأقواهم في احتمال مصاعب القتال ، وأذكاهم في التوافق مـــع الظروف المحيطة ، وأعمقهم إيمانـاً بالهدف . وهنا ، وعلى ضوء هذه الحقيقة تظهر الحقيقة لقادة العرب المسلمين وفي طليعتهم قائد فتح المغرب العربي عقبة بن نافع الفهري القرشي » .

لقد كان جيش العرب المسلمين في المغرب ضعيفاً في عدده قوياً في إيمانه يجابه حشداً من القوى المتفوقة ولم يكن باستطاعته الصمود وخوض الصراع المستمر لولم يكن جيش العرب المسلمين على استعداد دائم للقتال. ولكن هذا الاستعداد لم يكن ليحقق أهدافه لولم يوجه الوجهة الصحيحة ، وهذا هو الدور الكبير الذي اضطلع به عقبة ابن نافع القائد العربي والذي كتب له الخلود . وقد كان التفاعل الكامل بين قيادة عقبة بن نافع وبين مجموع قوى المسلمين، وكفاءة

القائد عقبة في تكييف المعطيات الاستراتيجية وتطبيق مبادىء الحرب بما يتوافق مع متطلبات مسرح العمليات هو أروع ما في صفحة فتح المغرب العربي خلال ولاية عقبة .

٢ – الروح المعنوية العالية

لا تقاس قوة الجيوش بعددها أو بما يتوافر لها من وسائط وانما تقاس بقوة الجيوش وتسليحها مرفوعاً الى قوة مجهولة هي القوة « س » ويعبر عن هذه القوة بالروح المعنوية . واذا كانت هناك جيوش في الدنيا قد قاتلت اعتماداً على قوة هذا العامل المعنوي فهي جيوش العرب المسلمين ، وكانت الروح المعنوية العالية للعرب المسلمين هي الثقل المقابل لما كان يتمتع به أعداء المسلمين من تفوق في القوى والوسائط . واذا استعرضت وقائع المسلمين وأيامهم منذ ظهور الدعوة الاسلامية وحتى أقصى ما وصلت اليه فتوحهم عام ٩٣ هـ حيث أمكن لموسى بن نصير فتح الأندلس ولقتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي فتح حدود الهند والصين ، فان مقارنة ميزان القوى في المعارك جميعها لم تكن لصالح المسلمين ، وكان تفوق أعداء المسلمين يتراوح بين واحد إلى خمسة وحتى واحد الى عشرة ، وقد حقق المسلمون انتصاراتهم في معاركهم جميعاً وحطموا موازين القوى وجعلوها لصالحهم بفضل إيمانهم وروحهم المعنوية العالية ، وكانت الروح المعنوية عند العرب المسلمين تعتمد على معطيات ثابتة وفي طليعتها :

١ – الإيمان بالهدف والاستعداد للتضحية حتى بلوغه، واحتمال الصعاب والمشاق لنيل أحد الحسنيين النصر أو الجنة . وكان هذا الإيمان هو الحافز الأقوى للروح المعنوية العالية .

٢ – الإيمان بأخوة السلاح ، وأخوة الاسلام في الجهاد ، وهو ما يصوره الرسول الأعظم في حديثه « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على سواهم » .

٣ – الايمان بضرورة الانقياد للقائد والثقة به دون حدود سوى طاعة الله « أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم » وكانت هذه الطاعة والانضباط العميق من العوامل التي ساعدت القيادات العربية الاسلامية في الهيمنة على القوات وتوجيهها نحو أهدافها .

فاذا كان هذا الموقف العام بالنسبة للعرب المسلمين ، فقد كان لعقبة بن نافع وجيش العرب المسلمين في المغرب العربي موقف خاص يتميز عن الموقف العام . وهذا الموقف الخاص هو ضعف جيش العرب المسلمين عددياً حتى بالمقارنة مع قوة جيوشهم على الجبهات الأخرى . وان ايضاح هذا الموقف يتطلب عودة الى بداية تطور الجيوش العربية ، ففي غزوة العسره ، حشد الرسول القائد أقصى قوة ممكنة عند التوجه الى تبوك ، وتشير المصادر التاريخية الىأن قوة هذا الجيش لم تتجاوز الثلاثين الفاً . وفي موقعة اليرموك حشد امير المؤمنين ابو بكر كل ما يستطيعه فكان عدد جيش المسلمين في حدود ٣٨ الفاً يقل عن

ذلك او يزيد قليلاً . وفي موقعة القادسية لم يكن جيش سعد ابن ابي وقاص يزيد على ٢٢ الفاً . وفي موقعة نهاوند « وكانت عام ٢١ هـ – أو عام ١٩ هـ » وفق ما تذكره بعض المصادر ، أمكن حشد ٣٠ الفاً من المسلمين. واذا استثنينا الحملات التي كان يقودها ولاة مصر والتي كانت لا تزيد على عشرين الفاً، ثم لا تلبث هذه الحملات أن تعود الى مصر . فان جيش عقبة بن نافع كان **لا يزيد على عشرة آلاف** . ووفق هذا المضمون فقد اعتبرت جبهة المغرب جبهة ثانوية من وجهة نظر الدولة العربية الاسلامية، وأعطيت الافضلية الى الجبهات القارية التي كانت على اتصال بري بالدولة . فاذا عرف ذلك ، وعرف أن جبهة المغرب العربي لم تكن أقل في قوتها من الجبهة الشرقية « فارس » . واذا عرف أيضاً عزلة بقية الجبهات عن المؤثرات الخارجية ، ووجود هذه المؤثرات في جبهة المغرب بسبب اتصال الروم « البيزنطيين » بها وتحريضهم أهلها على حرب المسلمين، أمكن ايضاح الموقف الخاص لعقبة بن نافع والمتمثل بقلة القوة العددية لجيش العرب المسلمين وضعفه في مواجهة التحديات المفروضة عليه ، وللأعباء الملقاة على عاتقه والتي لم يكن هناك من وسيلة للتغلب على هذه العقبات جميعها ومعالجة نقاط الضعف كلها الا بالروح المعنوية العالية .

٣ – الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب

القتال كره ، صعوبة ومشقة ، ولكنه وسيلة عادلة عندما يكون الهدف نبيلاً . ولقد أهلت الطبيعة الانسان العربي على

احتمال كره القتال وصعوبته ومشقته ، ولقد برهن تاريخ الحروب في اكثر من مرة على ان النصر في الحرب يقف الى جانب الطرف الاقوى على احتمال كره القتال ومن يكون اكثر صلابة وقسوة.

لقد اجتازت جيوش العرب المسلمين من قواعدها في الجزيرة العربية الى أهدافها في أقصى بلاد الشام شمالاً وفي أقصى الهضبة الايرانية شرقاً وحتى الاطلسي غرباً ، آلاف الكيلومترات ، وحقيقة أن جميع القوى لم تشترك في هذه المسيرة الكبرى بل إن قوة من القوى عملت على كل جبهة من الجبهات ، وصحيح ايضاً ان هذه المسيرة الكبرى لم تحدث في حقبة زمنية واحدة وعلى مرحلة واحدة ، ولكن كم هي بعيدة مسافة هذه المسيرة حتى على القوة الواحدة في الجبهة الواحدة خلال فترة محددة . وعلى سبيل المثال تلك المسيرة التي قطعها عقبة بجيش الشام من دمشق حتى القيروان في مرحلة واحدة ثم الحملة التي أعقبتها من القيروان الى المحيط جيئة وذهاباً . ولم تكن ظروف مسيرة هذه الحملة ظروف سهلة بعيدة عن المشاق بل اعترضتها اهوال كبيرة ومعارك ضارية « حتى حسب المسلمون انه الفناء » . وكانت وسائط التحرك في تلك المسيرات والحملات هي الخيول والدواب ، وكان على الفارس المقاتل بعد تجاوز كل مرحلة بذل جهد للعناية بالخيول وتأمين الموارد الحياتية ثم القيام بأعمال الحراسة وتطبيق تدابير الحيطة من ارسال مفارز استطلاع ودوريات ، وذلك وحده كاف لاستنزاف القوى دون دخول في قتال او التعرض

لاشتباك ، فاذا أضيف الى ذلك كره القتال ظهر مقدار ما كان يتميز به المقاتل العربي من كفاءة بدنية عالية وقدرة على تحمل الصعاب .

وقد استغرقت حملة عقبة الاخيرة زهاء السنة ، كانت كلها مسيرات طويلة ، ومعارك متصلة، وصراع مرير واحتمال لظروف الحياة القاسية ، وتبدل الاحوال الجوية ما بين العمل في مناطق السهول والجبال والصحارى والسواحل مع ما يرافق ذلك من اختلاف كبير في درجات الحرارة وفي تبدل المناخ وهذا ايضاً كاف وحده لاستنزاف قوة اقوى الرجال . وما كان اغنى المسلمين عن احتمال هذه المشاق كلها واقتحام هذه الاخطار جميعها لو كان هدفهم الحصول على الدنيا ، فلو كانت الحاجة للعيش هي التي دفعتهم لكان لهم في الشام والعراق ما يكفيهم مؤونة الحياة الدنيا ويوفر لهم من العيش أرغده ، ولكن حافزهم العقائدي هو الذي دفعهم الى انجاز ما حققوه ، فتركوا الدنيا وراء ظهورهم ، وحملتهم كفاءتهم البدنية العالية وقدرتهم على تحمل الصعاب يقتحمونها والى عالم الخطر فلا يرهبونه بل يخضعونه وبذلك استطاعوا رفع منارات خالدة أبد الدهر .

لقد كانت الروح المعنوية العالية للمسلمين هي أول عدتهم في الحرب . وكانت الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب هي الوسيلة التكميلية لتحقيق نوازع الروح المعنوية العالية وتنفيذ تطلعاتها وأهدافها ، ولولا توافر هذه الكفاءة

البدنية العالية لأصبح من المتعذر – إن لم يكن من المستحيل – على عقبة وأصحاب عقبة ، تجاوز تلك المسيرة الطويلة واقتحام تلك المصاعب واحتمال كل تلك المتاعب والمشاق . ولقد برهن هذا العامل على أهميته وقيمته حتى بالنسبة للحروب الحديثة حيث اصبحت وسائط النقل والتحرك براً وبحراً وجواً تتجاوز آلاف الكيلومترات في فترات قصيرة ورغم توافر هذه الوسائط جميعها فان متاعب المعركة وحدها تتطلب من الكفاءة البدنية ومن القدرة على تحمل الصعاب قدرا كافياً ، ولهذا يتم توفير الوسائط لوضع المقاتل في قلب المعركة للافادة من كفاءته واستثمار قوته لتحقيق هدف الحرب. وذلك وحده يظهر مقدار ما كان يتميز به جند المسلمين عامة وجيش عقبة منها خاصة من حيث كفاءته البدنية العالية وقدرته على احتمال كره القتال .

٤ – عقبة والجهاد في سبيل الله «أو ما يعرف حديثاً باسم الحرب الشعبية»

لم تكن قوة العرب المسلمين العددية ، قادرة على احتمال اعباء نشر الرسالة وممارسة الفتوح بالاعتماد على جزء فقط من هذه القوة ،وقد فرض الله تعالى القتال على المسلمين كافة دون استثناء إلا لسبب واضح وعذر شرعي ، فكان من نتيجة ذلك تطبيق مضمون الحرب الشعبية على اوسع نطاق وبأعمق مضمون . ولم يكن هذا المضمون دفاعياً فحسب ، بل كان مضموناً دفاعياً – هجومياً وهذا ما يميز الحرب الشعبية عند العرب المسلمين . فاذا

انتقلنا الى عقبة وجيش المسلمين في المغرب ، ظهرت الحاجة لتطبيق هذا المبدأ بوضوح أكثر ، ذلك ان هذا الجيش الذي لم يكن يتجاوز في بداية عملياته قوة عشرة آلاف مجاهد ، كان مكلفاً بمجابهة قوى وصلت في بعض المعارك الى ١٢٠ الفاً ، فكان من الطبيعي الاستفادة من كامل القوة وزجها دون استثناء أحد منها . ورغم تطبيق قادة العرب المسلمين للحرب الشعبية فقد بقيت قاعدة العرب المسلمين في حاجة للدعم ، وكان هذا الدعم ممثلاً بتوسيع قاعدة المسلمين لتحميلهم أعباء نشر الاسلام ، فقد جاء الاسلام للناس كافة . وفرض الجهاد على المسلمين كافة وللوصول الى هذه الغاية طبق مبدأ « الضم الزاحف » أو « استراتيجية بقعة الزيت » أو « ما يعرف باستراتيجية تقشير الخرشوفة – الأرضي شوكي » . ولخص عقبة بن نافع هذا المبدأ بقوله « ونحن اذا فرغنا – من بناء القيروان – لم يكن لنا بد من المغازي والجهاد – في افريقية – ونفتح الأول منها فالأول » وبذلك استطاع عقبة تطبيق مبدأ الحرب الشعبية بمضمون متطور ، وكان المسلمون من أهل افريقية هم الدعم الاساسي لقوة العرب المسلمين ، ثم لم يلبثوا غير قليل حتى اضطلعوا هم أنفسهم بحمل الرسالة ومشاركة العرب في حمل رسالة الاسلام الى الاندلس ، وإن ما فعله عقبة وما أنجزه هو صورة لما فعله معاوية بن أبي سفيان في الشام ، وعمرو بن العاص في مصر وما فعله سعد بن أبي وقاص في العراق ، وما فعله محمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي في اقصى المشرق الاسلامي . واذا كان تطبيق مبدأ

الحرب الشعبية في تسميته الحديثة وفي مضمونه الحقيقي القديم هو احدى استراتيجيات العرب المسلمين عامة ، فان تطبيق هذه الاستراتيجية على مسرح عمليات المغرب العربي ، وما أمكن الوصول اليه من نتائج انما هو عمل من ابداع عقبة بن نافع وثمرة لما بذله من جهد هو وصحابته والمسلمون جميعاً دون استثناء ، فقد كان المثل الأعلى الذي ضربه عقبة بنفسه ، وما بذله الصحابة والمسلمون من جهود لتعريف الناس بحقيقة الدين الاسلامي هو الاساس الذي حقق تلك المنجزات الضخمة ، وأرسى القواعد الثابتة للبناء الراسخ – بناء صرح الاسلام .

لقد عرف أهل « افريقية » الدين الاسلامي عن طريق عقبة واصحاب عقبة بالدرجة الاولى . فأحبوا العرب من خلال حبهم لدينهم وأخلصوا للعرب من خلال اخلاصهم لدينهم ونشأ عن ذلك النسيج المتلاحم بينهم وبين العرب المسلمين ، فاتسعت قاعدة المسلمين ، وتطور مفهوم الحرب الشعبية ، مما زاد من قوة العرب المسلمين وضاعف من فاعليتها وقدرتها .

كانت الحرب الشعبية من أسس العقيدة القتالية عند العرب المسلمين ، وكان تطبيق أسس هذه الحرب والنجاح فيها مرتبط بكفاءة القادة . وكان عقبة من القادة الذين برهنوا على كفاءة عالية في استخدام هذا المبدأ بصورة خاصة وتطبيقه وتطويره ، ولو لم يحقق القائد عقبة بن نافع من منجزات سوى العمل على ترسيخ دعائم الحرب الشعبية وتوسيع قاعدتها لتشمل المسلمين

جميعاً في افريقية لكان ذلك كافياً وحـــده لوضعه في طليعة القادة الناجحين . فاذا وضعت بعد ذلك مجموعة العوامل الخاصة التي تميز بها العمل في المغرب العربي ، تجاوز جهــد القائد عقبة ومنجزاته حدود التقدير والتقييم .

ه – عقبة وحرية العمل

تميزت قيادة عقبة بن نافع خاصة بقدر كبير من حرية العمل على خلاف ما كان عليه الموقف على مسرح عمليات قتال العرب المسلمين في الجبهات الأخرى حيث كانت ادارة الحرب فيهـــا خاضعة لنوع من المركزية القوية ، وقد يكون ذلك بسبب قوة شخصية عقبة بن نافع القيادية ، أو قد يكون بسبب مـــا عرف عنه من كفاءة قيادية عالية ، أو لعل السبب في ذلك هو العاملين معاً ، مضافــاً اليهما انشغال أمراء المسلمين في ادارة الحكم وادارة الحرب في ظروف من الاضطراب وتسارع الاحداث ، في حين كان عقبة يكفيهم وحده مؤونة العمل على جبهة واسعة ، وبعيدة عن مقر الحكم محققاً فيها الاستقرار ، عاملاً على تحقيق الهدف المشترك للمسلمين جميعاً ، فحصل على ثقة أمراء المسلمين وولاتهم ، مما وفر له الحصول على حرية العمل . فانطلق يعمل بوحي من رقابتــه الذاتية ، وإيمانه بالهدف الذي يعمل له ومن أجله . ان ذلك لا يعني أن أمراء المؤمنين قد أغمضوا عيونهم عمـــا كان يحدث فوق مسرح عمليات افريقية ، فهناك شواهد لا نهاية لها مما حفل بها تاريخ العرب المسلمين ، وهي تبرهن كلهـــا على قوة رقابة الدولة

ومتابعتها لأعمال الولاة والقادة أينما كانوا ، وقد كانت هـذه الرقابة تصل أحياناً حتى حدود متابعة السلوك الشخصي للولاة والقادة وأمراء جند المسلمين . ولكن سلوك عقبة كان فوق الرقابة ، كما كانت قيادته فوق مستوى النقد ، ولهـذا لم يظهر لرقابة الدولة على اعماله او تدخلها في شؤونه أي أثر . وتعتبر هذه الظاهرة في حد ذاتها برهاناً ساطعاً على كفاءة عقبة القيادية ، كما تعتبر برهاناً ايضاً على سلوك عقبـة بن نافع الذي ارتفع فوق حدود الشبهات .

ان ممارسة القيادة في اطار من حرية العمل ، يتطلب علاوة على الرقابة الذاتية ، إرادة قويـة للعمل ، كما يتطلب وضوحـاً في الرؤيا ، وقدراً غير قليل من تحمل المسؤولية ، وهو ما لا قبل لأحد من الرجال باحتماله سوى قـلة منهم تعرف باسم « كبار القادة » احياناً و « القادة العظام » احياناً اخرى ، و «القادة الناجحون »في كثير من الاحيان . وتظهر سيرة عقبـة بن نافع القيادية أنه كان من النوع الذي يعرف هدفه جيداً ، ويعمل كل ما يستطيع لتحقيقه ويحس بالمسؤولية الضخمة الملقاة على عاتقه ، ويتحمل برجولة فائقة نتائج اعماله . وحرية العمل بعد ذلك هي النقيض للمركزية في العمل. وتتطلب المركزية كأساس لها توافر وسائط متطورة للرقابة والسيطرة ، ولم يكن ذلـك متوافراً بسبب بعد المسافة ، وقد يكون هـذا العامل في جملة العوامل التي ساعدت على منح عقبة بن نافع حرية العمل كاملة . ولعل مما

تجدر ملاحظته ، هو ان القاعدة القيادية عند أمراء المسلمين هي منح حرية العمل إذا ما تطلب الموقف ذلك، والاكتفاء بتحديد الهدف مع توصيات عامة . فاذا ظهر ان القائد دون مستوى المسؤولية ، تم عزله فوراً . فقد عزل الخليفة أبو بكر قائده خالد بن سعيد عندما أثبت هذا عدم قدرته على ممارسة دور القيادة بنجاح . كما عزل الخليفة عمر قائده «شرحبيل بن حسنة» عن قيادة الاردن وولايتها « ولم يكن ذلك عن سخطة ، وانما لاختيار قائد أكثر كفاءة من قائد »..

ويظهر ذلك كله توافر الشروط الكاملة للقائد في شخص عقبة بن نافع مما لم يترك مجالاً لتدخل أمير المؤمنين في شؤون قيادته ، فاستمر في العمل للوصول الى هدفه ضمن إطار حرية العمل الكاملة. واذا برهن ذلك كله عن شيء ، فانما يبرهن على أن القائد عقبة كان في سلوكه الخاص ، وسلوكه العام نموذجاً للقائد العربي المسلم الذي يعمل بوحي من ايمانه وعقيدته ، وبتوجيه من رقابته الذاتية ، ويعني ذلك ايضاً انه لم يكن للقائد عقبة سلوك شخصي خاص يؤثر على سلوكه العام في قيادته ، وهذا ما ضمن له حرية العمل التي ساعدته على تحقيق منجزاته .

٦ - الانضباط والطاعة

يختلف مفهوم الانضباط اختلافاً كبيراً بين العقائد القتالية المعاصرة ، وهو يختلف أيضاً في مضمونه بين عصر وعصر وبين

أمة وأمة ، ويتلخص مفهوم الانضباط في العقيدة القتالية عند العرب المسلمين بالانقياد الكامل لأوامر القائد وتعليماته طالما أن هذه الاوامر والتعليمات لا تتعلق بالمعتقدات – لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق – وهذه هي الحالة الوحيدة التي يحق للمرؤوس فيها الخروج عن ارادة القائد والتمرد على تنفيذ اوامره، ويستمد القائد سلطته الروحية – كما يستمد دعمه المادي – من قائده الأعلى أو من أمير المؤمنين ، ويكون الحكم في ممارسة القيادة هو الالتزام بعقيدة الاسلام الدينية ، وتعاليمها المتكاملة في القيادة وفن الحرب .

يوضح ذلك جانباً من جوانب القيادة عند عقبة بن نافع ، **فلقد كان يحرص على فرض الانضباط بمفهومه الأبوي** ، ويطلب الطاعة ويشدد عليها . وكانت قوة شخصيته وخلقه القويم عوناً له في فرض الانضباط . ويوضح ذلك أيضاً سبب نقمته وغضبه لعزله دون سبب يتطلب ذلك ، وزاد الأمر سوءاً ما لقيه من إجحاف في المعاملة ، فاجتمع في نفسه إباء العربي الذي يكره الظلم – وقد كان في عزله ومعاملته ظلماً كبيراً – مع المخالفة لمضمون الانضباط وفق المفهوم العقائدي للاسلام طالما انه لم يرتكب من الاخطاء ما يقتضي العزل . وتركز الغضب على ابي المهاجر دينار الذي كان وسيلة هذا الظلم وأداته . وليس بالامكان اعتبار هذا السلوك نقطة ضعف تؤخذ على عقبة ، فهو انسان قبل كل شيء وليس نبياً له خلق الأنبياء والرسل حتى يترفع عن الغضب ، ويتجاوز الاساءة ليقابلها بنقيضها ، ورغم

ذلك ، فانه في لحظة العسرة ، لم ينكر على أبي المهاجر دينـــار كفاءته القيادية ، وأنه افضل خلف له ، فقام يطالبه وهو يفك قيوده باللحاق بالمسلمين والقيام بأمرهم **وهذا يدل على أنه لم يكن – حتى في أقسى الظروف وأصعبها – يترك لعواطفه حريـة التدخل في قراراته القيادية** . ولقد كان الانضباط الذي فرضه عقبة في الواقع هو من العلامات المميزة لقيادته بصورة خاصة ، فقد عرفت جيوش العرب المسلمين بانضباطها الحازم ، وهيمنـة القادة القوية على قواتهم ، لكن عقبة القائد تجاوز قادة العرب في هذه الناحية ، وليس هناك كثرة تماثله في اسلوبه بـين قادة العرب سوى ابو عبيدة بن الجراح وموسى بن نصير . ولعل التشابه في صفات هؤلاء القادة ، وظهورهم في فترة متقاربة إنما يعود الى ادراكهم الموحد لمضمون عقيدة الاسلام القتاليـــة وإلى صفاتهم الشخصية وما تميزوا بهمن خلق كريم . ولذلك فقد كانت قيادتهم – رغم حزمها وشدتها – محببة إلى نفوس المجـاهدين وقلوبهم . وكان لهذه المحبة دورها في انقياد الرجـــال طواعية لتعليماتهم وأوامرهم ، ومما يسترعي الانتباه في سلوك هؤلاء القـادة أيضاً أنهم كانوا هم أنفسهم نموذجاً للانضباط والطاعـة بالنسبة لقادتهم – أمراء المؤمنين – واذا كانت مقولة « فاقد الشيء لا يعطيه » صحيحة ، فان انضباط هؤلاء القـــادة كان هو المورد الذي يستلهمون منه سلوكهم وأسلوبهم في فرض الانضباط والطاعة .

وهنا لا بد من القول أيضاً أن الانضباط والطاعة في عقيدة

العرب المسلمين القتالية مرتبط بمجموعة من المعطيات العـامة ، والكفاءات الخاصة للقادة وفي مجال المعطيات العـامة « تدخل قضية الالتزام بالأسس الاستراتيجية والتطبيق الصحيح لمبادىء الحرب » أما في مجال كفاءات القادة الشخصية فتدخل العوامل المعنوية ، والكفاءة البدنية العاليـة والقدرة على تحمل الصعاب والشجاعة في مواجهة الخوف واتخاذ القرارات الصحيحة وكان توافر ذلك كله في شخص عقبة القائـد هو الذي جعل له شخصية مميزة في مجال الانضباط وفرض الطاعة التي حملت له رهبة الخصوم واحترام المجاهدين ، في سبيل الله .

بقيت بعد ذلك اكثر من نقطة تستحق الوقوف عندها، فلقد أثارت حياة عقبة القيادية في القديم والحديث الكثير من الجدل والحوار . بعضها مؤيد لمواقف القائد عقبة وبعضها معارض لهذه المواقف . وقد يتطلب الامر اكثر من مجرد التأييد او المعارضة، انه يتطلب ايضاحاً لمضامين النقاط المثيرة للجدل وأبرزها :

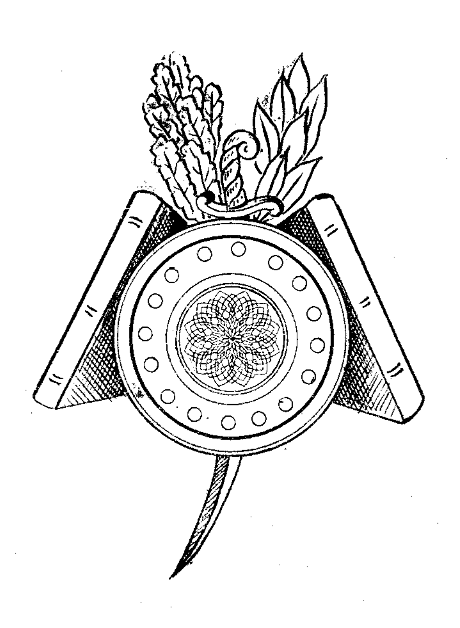
١ ــ موقف عقبة في حرب الحركة .

٢ ــ موقف عقبة القيادي وسلوكه في مجابهة بعض الحالات « موقفه من كسيلة ومن أبي المهاجر دينار » .

ولقد سبقت معالجة هذه النقاط في بعض فقرات البحث ، ولكنها تتطلب مزيداً من الضوء لمعالجتها في إطار مستقل .

لقد قدمت حرب الحركة في العصر الحديث ، وبصورة خاصة

خلال الحرب العالمية الثانية سواء على مسرح العمليات الافريقي « عمليات رومل ومونتغومري » او على مسرح عمليات الغرب « غودريان » كثيراً من البراهين على صحة اجراءات القائد عقبة بن نافع وتدابيره في حرب الحركة . وعلى هـذا فقد يكون من الافضل معاودة دراستها بما تستحقه من اسهاب وتفصيل .



عقبة وحرب الحركة

تحتل عملية التقدم التي قادها عقبة بن نافع ما بين القيروان والبحر المحيط « الاطلسي » نموذجاً لحرب الحركة في مضمونها الحديث ، وهي ذات طابع مميز تنفرد به عن حركة الاسكندر المقدوني عندما هاجم بلاد فارس[1] وذلك لوجود التفوق بالقوى والوسائط لصالح الاسكندر ، كما تتميز حركة عقبة عن حركة القائد هانيبال « هانيبعل »[2] أيضاً بوجود نوع من التوازن في القوى والوسائط لصالح هانيبال. وهكذا تكتسب حرب الحركة

---

(١) حدثت قبل ذلك معركة ماراتون الشهيرة بين اليونان والفرس عام ٤٩٠ ق.م وكانت كذلك نموذجا لحرب الحركة . ثم جاء الاسكندر عام ٣٣٤ ق.م فقاد (٤٠) ألف مقاتل وفتح سوريا ومصر ثم توغل في فارس وخاض معركة أربيلا ضد القائد الفارسي داريوس وانتصر عليه .

(٢) حيث حدثت موقعة كاني عام ٢١٦ ق.م. وكان ذلك بعد حركة استدارة واسعة عبر الاندلس ـ شمال ايطاليا (روما) قام بتنفيذها هانيبال في ظروف صعبة وقاسية .

عند عقبة بن نافع أهمية خاصة في التاريخ العسكري نظراً لاعتماد عقبة في حروبه على عامل معنوي وعلى أسس استراتيجية ومبادىء عملياته تجعل موضوع التفوق في القوى والوسائط في مرتبة لاحقة وليس في مرتبة سابقة عند التخطيط للعمليات ، وعند تنفيذها . ومهما كان عليه الموقف ، فقد كان توغل عقبة العميق ،بقوى ووسائط محدودة، موضع نقد في القديم والحديث.
ففي القديم كان في جملة من وجه النقد الى عقبة ، القائد العربي موسى بن نصير ، حيث علق على عملية عقبة بقوله **« لقد غرر عقبة بنفسه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد ؟ »** ولكن موسى بن نصير كاد يجابه الموقف ذاته عندما أوغل في تقدمه وجاوز سرقسطه « ساراغوسا » واشتد ذلك على الناس وقالوا « أين تذهب بنا ، حسبنا ما في أيدينا » فتقدم حنش الصنعاني من موسى وقال له : ألست أنت القائل عندما ذكر عقبة بأنه « كان قد غرر بنفسه حين وغل في بلاد العدو ، والعدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه ، أما كان معه رجل رشيد ؟ » وأنا رشيدك اليوم ، فضحك موسى وهو يقول « أما والله لو انقادوا إلي لقدتهم إلى رومية — روما — ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله » ويظهر ذلك أن طموح القادة العرب المسلمين لتحقيق الهدف الكبير كان فوق مستوى التحديات ، فكانت المجازفة المحسوبة ضمن احتمالات القادة . وكانت النجاحات الرائعة والانجازات العظيمة التي حققتها قوات العرب المسلمين من بعض الحوافز لتحقيق مزيد من الانتصارات واقتحام مزيد من المجازفات

على مختلف جبهات القتال .

لقد أوغل عقبة بن نافع في تقدمه دون ريب ، وكان حجم القوى والوسائط في جيشه أقل بكثير من متطلبات مسرح العمليات . مما جعل عملية التقدم بالعمق تكتسب نوعاً من المخاطرة . وكان علاج هذا الموقف يتطلب اللجوء الى واحد من حلين :

١ - ترك قوة من جيش المسلمين عند كل مقاومة للتعامل معها والعمل على تصفيتها مع متابعة التقدم . وكان ذلك يتطلب بالضرورة قوات ضخمة لتصفية جيوب المقاومة قبل تجاوزها أو حتى بعد تجاوزها ولم يكن ذلك ممكناً لعدم توافر القوى والوسائط الكافية في جيش عقبة ، ولتناقض ذلك مع مضمون « الاقتصاد بالقوى » وهو ما كان عقبة حريصاً على تحقيقه والالتزام به في القسم الاكبر من معاركه .

٢ - التوقف عند كل مقاومة حتى تصفيتها ، ثم الانتقال الى غيرها مع ما يتطلب ذلك من تناقض مع مضمون حرب الحركة ، ومع مضمون العقيدة القتالية للعرب المسلمين بل حتى مع طموح العرب المسلمين وتطلعاتهم . ومن هنا يظهر التناقض بين مضمون **« حرب الحركة » و « حرب المواقع »** . وكان الأمر الطبيعي أن يقدم عقبة على اللجوء الى الاختيار الاول ، أي أن يلجأ الى حرب الحركة مع ما فيها من مجازفة محسوبة . والابتعاد عن « حرب المواقع » مع ما فيها من ضمان لشروط الأمن والحيطة . وعلى

هذا كانت حرب الحركة والتقدم بالعمق واحتمال المجازفة ظاهرة طبيعية في قيادة عقبة .

ان ظاهرة التقدم في العمق عند عقبة بن نافع، تجد لها ظاهرة مماثلة في الحرب الحديثة في تقدم الالمان حتى عمق الاتحاد السوفييتي عند تطبيق خطة « بربروسا » . فقد كانت الاراضي الروسية واسعة جداً ، وتندر فيها المواصلات ، فبقيت مساحات هائلة من الغابات او المستنقعات ممتنعة على القوات الآلية الالمانية . وعلاوة على ذلك ، فقد كانت الجبهة الالمانية تتحرك بسرعة كبرى الى الشرق ، وبمعدل ألف كيلومتر خلال بضعة شهور . فكانت الكثافة القوية للقطعات الالمانية تتحرك باتجاه الشرق مخلفة وراءها جيوباً للمقاومه . وقد اخذت هذه الجيوب في التلاحم وزيادة قوتها ، مما دفع القيادة الالمانية ان تخصص في منتصف عام ١٩٤٣ ما يعادل قوة ٥٠٠ ألف رجل لحماية مؤخرتها. ويظهر بوضوح ان التشابه لا يقتصر على « نوعية التقدم بالعمق » وانما يتجاوزه الى التشابه في طبيعة مسرح العمليات ، وطبيعة التقدم وحتى سرعته « ألف كيلومتر خلال بضعة شهور » . ولكن هناك نقطة اختلاف أساسية هي حجم القوى والوسائط المستخدمة التي كانت متوافرة للقوات الالمانية، وقلة هذه القوى والوسائط بالنسبة لجيش المسلمين الذي كان يقوده عقبة . ويبقى العامل الحاسم في الموقفين واحد ، وهو الوصول الى الهدف، رغم ما يحمله الوصول الى الهدف من مجازفة ومغامرة . ولقد كان

الهدف مختلفاً بالنسبة للموقفين فقد كان معنوياً بالنسبة للعرب المسلمين « نشر الاسلام » وكان مادياً بالنسبة لألمانيا النازية « وهو الوصول الى العمق الاستراتيجي والافادة من امكانات الاتحاد السوفييتي وموارده » . وعلى الرغم من اختلاف الهدف ايضاً فقد كانت الخطة الاستراتيجية واحدة وهي **الوصول الى العمق الاستراتيجي عن طريق حرب الحركة** .

وتجد حرب الحركة عند عقبة بن نافع ايضاً ما يماثلها في تاريخ العرب المسلمين عند القائد خالد بن الوليد . ولكن رغم التشابه في موقف القوى وفي الهدف السياسي والاسس الاستراتيجية ومبادىء الحرب فهناك اختلافات جذرية بين موقفي القائدين ، أولها أن خالداً كان يعمل وهو على اتصال ببلاد المسلمين ، بينما كان عقبة بن نافع منقطع عن بلاد المسلمين . فكان سيل الدعم متوافراً للأول وغير متوافر للثاني . وكان خالد يعمل على جبهة رئيسية بينما كان يعمل عقبة على جبهة ثانوية ، وكان خالد يعمل في وسط مجموعة من القادة يضعون حداً لاندفاعاته « مثل موقف أبي عبيدة بن الجراح عام ١٧ هـ عندما رفض مجابهة هجوم الروم المعتاد على حمص وانتظر دعم الخليفة بينما كان خالد يطالب بالالتحام فوراً مع قوة الروم رغم الفارق الكبير في القوى » وقد عولجت هنا قضية الروم المتعاونين في تقدمهم مع القبائل العربية الموالية لهم « مثل قبائل إياد ونزار » على المستوى السياسي والاستراتيجي بتخطيط من أمير المؤمنين ذاته « عمر بن

الخطاب » بينما كان عقبة مطلق الحرية في العمل . وكانت هـذه الفوارق الجذرية من العوامل التي يجدر وضعها عند المقارنة .

وعلى هذا فان تقدم عقبة ، وما نتج عـن ذلك من ظروف مأساوية دفع القائد عقبة بن نافع حياته ثمناً لها ، لا يعتبر خطأ فردياً من عقبة ، او تناقضاً مع مبادىء الحرب ، او تقصيراً في التخطيط للعمليات او حتى قصوراً عن الرؤية الشاملة للموقف ، وانما كان نتيجة لمجموعة معقدة من العوامل المتشابكة سبق ايضاح قسم كبير منها بما يتوافق مـع الاسس الاستراتيجية ومبادىء الحرب في عقيدة القتال عند العرب المسلمين .

هناك بعض العقائد القتالية تضع مسؤولية الفشل على القائـد للمحافظة على قدسية المبادىء والاسس المعتمدة للحرب ، وهناك عقائد أخرى تضع الفشل على عاتق صدفة الحرب الخارجة عن كل تخطيط ، وهناك عقائد ايضاً تحتمل نصيبها من الفشل ، ولكن ، وفي موقف عقبة ، فان الفشل يقع على مجموعة هذه العوامل . وعلاوة على ذلك فهناك نقطة غير واضحة فيما سجلته كتب التاريخ العربي حول عمليات عقبة القتالية ، ولكن الشواهد تشير الى أن عقبة عندما أوغل في تقدمه قد وضع في اعتباره احتمال دعم المسلمين من أهل البلاد ، ولا ريب أنه تلقى مثل هذا الدعم ، ولكنه كان دعماً في جميع الاحوال دون مستوى التحديات المفروضة مـن قبل تحالف الروم والافارقة . وكان هذا الدعم في حاجة لفترة زمنية أخرى حتى يكتسب مزيداً مـن القوة وحتى يستطيع فرض

وجوده في مسيرة الاحداث وتفاعلاتها .

ومهما كان عليه الموقف ، وحتى لو لم تكن حملة عقبة بن نافع الاخيرة سوى غزوة استطلاعية لاكتشاف مسرح العمليات بكامله ، وتكوين فكرة شاملة عنه لكان ذلك جديراً بالمجازفة . ولعل مما يزيد من أهمية عملية عقبة ، هو أنها كانت البداية لتقدير شامل للموقف، فقد وضع القادة بعد ذلك الأساس الحاسم لنجاح العمليات وهو عزل الروم وتطويقهم داخل حدودهم وتصفية قواعدهم من المغرب العربي والسيطرة على الجزر القريبة في غرب بحر الشام « البحر الابيض المتوسط » وزيادة أساطيل القوة البحرية الاسلامية مما وفر الفرص المناسبة لمتابعة الفتوح . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، فان مأساة تهوذة واستشهاد عقبة ومن بعده زهير بن قيس البلوي لم تكن عديمة الفائدة ، أو دون جدوى فقد أفاد المسلمون بعد ذلك من المعلومات التي توافرت لديهم ، وأصبحت معرفتهم بافريقية أكثر عمقاً واكثر شمولاً . ومن هذه الناحية فقط تعتبر حملة عقبة « عملية استطلاع بالقوة ذات نتائج رائعة » حتى لو لم تحقق هذه العملية نتيجة مباشرة، وحتى لو لم يفد منها القائد الذي قام بتنفيذها .

في القيادة

عرّف الحكيم سقراط القائد الناجح بقوله « هو القائد الذي يعرف كيف يوصل الى رجاله المؤن اللازمة للحرب ، ويجب أن يكون له الخيال القادر على وضع الخطط ، والحس العملي والطاقة الكافية لتنفيذهـا ، ويجب ان يكون دقيق الملاحظة ، ثاقب الذكاء، لا يتعب ولا يكل، يجمع بين اللطف والقسوة ، والبساطة والشدة ، ويحسن المراقبة واغتنام الفرص ، يجب أن يكون سخياً ومقتراً ، كريماً وضنيناً ، متهوراً ومتروياً (مكيثاً). كل هذه الصفات وصفات أخرى كثيرة غيرها ، مـن فطرية ومكتسبة ، يجب أن تجتمع فيه ، وعليه أيضاً بشكل طبيعي ، أن يعرف فن التنظيم الحربي لأن مجموعة من الرجال الذين تسودهم الفوضى لا يمكن أن تسمى جيشاً ، الا اذا اعتبرنا ان كومة من مواد البناء هي منزل جاهز » .

لا حاجة للقول بأن سقراط في تعريفه للقائد الناجح كأنمـا كان يضع وصفاً لقادة العرب المسلمين عامة ولعقبة بن نافع خاصة ولكن ما لم يركز عليه سقراط في وصفه هو ما تميز به عقبة من قسوة وصلابة في الجسم ، وروح معنوية عالية ، وقدرات فكرية وخلقيـة لتحمل المسؤوليات الجسام والشجاعة الفائقة وقت الخطر .

ان ما هو مطلوب توافره في صفات القائد ، قديماً وحديثاً ،

هو أن تكون لديه المغامرة وأن يهاجم بشدة عندمــا تلوح له بوادر الخسارة ، رافضاً الغلبة لخصمه، وهذا ما يميز القائد البارز عن القائد العادي . ولقد كان نابليون يقول « لو كان فن الحرب يوصي فقط بالتصرف الخالي من المخاطرة ، لكان المجد تحت رحمة المواهب الضئيلة » ولهذا كان نابليون يسأل دائمــاً عن القائد « المحظوظ » وكان ما يعنيه حقاً « هل هو بطل ؟ » ان البطل قد يكون محظوظاً ، ولكن القائد لا يمكن أن يكون محظوظاً إلا اذا كان بطلاً . **ذلك أن القيادة اذا ارتبطت بالنظم والقيود أضاعت على نفسها الكثير من فرص النجاح**. وهناك الكثير من القادة الكبار الذين يصلحون لأن يكونوا منفذين ممتازين ما داموا تحت امرة قائد، ولكنهم يتجردون من العمق المعروف عنهم واحياناً يخرجون عن طورهم اذا ما أعطوا قيادة مستقلة . وهناك قـلة من القادة المتميزين بصعوبة المراس وبالقدرة على ممارسة القيادة المستقلة بكفاءة عالية ، وقد كان عقبة بن نافع من هذه القلة.

ان هذا الوصف الوجيز والتعريف المختصر للقائـــد يظهر بالضرورة أهمية دراسة التاريخ العسكري ، فالاعمــال القتالية والمنجزات الرائعة للقادة انما هي مــن عمل الانسان . انها عمل يتعلق بالجسم والروح وليست عملاً مجرداً محدد العلاقة بالاشكال الهندسية او المعادلات الرياضية او القواعد والآلات. انها تتعلق بالرجال ، ولعل تلك اللوحة الـــتي علقت في قاعة للمحاضرات تابعة لمدرسة المشاة الفرنسية تصور هذه الحقيقة ، حيث حملت

تلك اللوحة « الانسان هو السلاح الاول للمعركة فلندرس الجندي في المعركة اذن ، لأنه هو الذي يجعلها حقيقة واقعة ، **ان دراسة الماضي فقط تعطينا الحس بالحقيقة وتظهر لنا كيف سيحارب الجندي في المستقبل** » . فالانسان هو الانسان منذ بدء صراعه مع مـــن حوله في العصر الحجري وحتى في العصر الذري ، بانفعالاته وأحاسيسه ، بمخاوفه وشجاعته في مجابهة الخطر . وعلى هذا ، وعنــد دراسة التاريخ العسكري ، تظهر ضرورة تجاوز قضية معرفة الخطوط العامــة للاستراتيجية او مبادىء الحرب للوصول الى قراءة التراجم ، والروايات التاريخية ، والمذكرات والتعمق فيها دون الاقتصار عـــلى هيكلها العام ، ووفقاً لهذا المضمون فاننا اذا طالعنا أعمال عقبة بن نافع على سبيل المثال ، ودرسنا طريقة تقدمه من القيروان حتى المحيط ، فاننا نكون قد فعلنا القليل ، اما اذا اردنا تعلم شيء له قيمة ، فهو في معرفة كيف استطاع عقبة قيادة الرجال ، وفيهم مــن هو اكبر سناً ، او اكثر خبرة ، وزجهم في أصعب المواقف وأخطرها وكيف استطاع عقبة استثارة حماسة آلاف المسلمين مــــن عرب وبربر ودفعهم الى كره القتل والقتال . وان كل مـا يمكن قوله هو أن عقبة بن نافع لم ينجز ما انجــزه ويحقق ما حققه بدراسة النظم العسكرية والاستراتيجية الحربية وانما حقق الخلود بفضل معرفته العميقة للطبيعة البشرية في الحرب . وقد يستطيع قائد مــن القادة ان يدخل في روع رؤسائه انه قائد جيد ، ولكنه لا يستطيع اقناع جيشه انه كذلك الا اذا توافرت لديــه الميزات

الحقيقية للقائد الجيد . وان ما سجلته كتب التاريخ وما حفظته من شعور عام بالاسى لاستشهاد عقبة بن نافع ، وما اصيب به جيشه من فراغ كبير نتج عن غيابه ، انما هو برهان نهائي على أن عقبة بن نافع كان من نوع القادة الخالدين .

وبعد ، ليست هذه الدراسة بهدف تخليد ذكرى عقبة بن نافع ، **فذكراه خالدة ما دام هناك وجود للعرب المسلمين** ، وانما هي محاولة لتسليط بعض الاضواء على حياة عقبة بن نافع القيادية في اسلوب متطور يجعلها قريبة المتناول وقريبة المأخذ وقد يكون هناك من يأخذ على عقبة هذا الموقف أو ذاك ، ومع التسليم بوجود أخطاء في شخص عقبة القائد فانه يمكن القول بأن تاريخ الأفراد وحتى تاريخ الشعوب ، ليس خيراً كله ، وليس شراً كله ففيه الخير وفيه الشر طالما انه صورة للطبيعة البشرية وللتكوين الانساني . وفي تاريخنا – تاريخ العرب المسلمين – صفحات مشرقات ونقاط بارزة غير مضيئة ولا مشرقة ولا تنتقص هذه من قيمة تلك أو تشوهها ويبقى الحكم الاساس والعامل الحاسم في تقييم المواقف وتقديرها هو فيما تضمنته تلك الأسفار الضخمة من صفحات مشرقة ومنجزات خالدة أبد الدهر. وقد أعطى الاجداد في الواقع نتاجاً ثراً وفيراً في كل مجالات الحياة ، علماً وأدباً وفقهاً ، مما يحمل الاجيال اللاحقة على أن تفخر حقاً بما صنعه السلف ، وأن تترسم خطاهم **في بناء المستقبل المأمول على هدي الماضي ومفاخره وأمجاده .**



خاتمة

ما بعد عقبة

اضطرمت افريقية ناراً بعد مقتل عقبة ، وحدثت فيها انتكاسة ، وسيطر كسيلة على المغرب ، وأطاعه البربر ومن بقي من العرب ، وعندما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة بعد قضائه على الفتن الداخلية انصرف الى معالجة امر افريقية، فارسل عبد الملك الى اشراف العرب ليحشدوا اليه الناس من الشام ، وأفرغ عليهم أموال مصر ، فسارع الناس الى الجهاد ، واجتمع منهم خلق عظيم ، فأمرهم ان يلحقوا بزهير بن قيس البلوي الذي كان مرابطاً في برقة ، وقاد زهير بن قيس جيش العرب المسلمين وقاتل كسيلة في معركة ممش [1] وبعد معركة ضارية انتصر المسلمون وقتل كسيلة وانتهت ثورته . ولكن الروم «البيزنطيين» كانوا يعدون العدة لدعم ثورة كسيلة ، فقاموا بانزال قواتهم في برقة ، واصطدم زهير في قلة من أصحابه بعد عودته من معركة

(١) ممش : تقع في الجزائر وفي الهضبة الواقعة الى الجنوب الشرقي من جبال أوراس .

ممش بقوة الروم فقتل زهير واستشهد مـع طائفة من اصحابه ، وعادت افريقية تضطرم ناراً ، وحدثت فيها ردة تزعمتها في هذه المرة ملكة للبربر تدعى الكاهنة .

استمرت **ثورة الكاهنة** حتى امكن لعبد الملك بن مروان دعم حسان بن النعمان الازدي الغساني فقاد حسان جيش المسلمين وقاتل الراهبة وانتصر عليها في معركة بئر الكاهنة . ثم تابع حسان اعماله القتالية لفتح قرطاجنة وفاس وتقليص نفوذ الروم وتصفية قواعدهم ،وبقي الامر في حالة من عدم الاستقرار الكامل حتى تولى موسى بن نصير ٨٥ هـ افريقية فاستقر الامر نهائياً للمسلمين .

استمرت ثورة كسيلة سبعة اعوام تقريباً « ٦٣ – ٧١ هـ ، ٦٨٢ – ٦٩٠ م » . واستمرت ثورة الكاهنة بعد ذلك حتى عام « ٨١ هـ ، ٧٠٠ م » وبقي نفوذ الروم قوياً حتى استطاع حسان بن النعمان ومن بعده موسى بن نصير تصفية قواعد الروم في افريقية ، وقطع الاتصال مع قاعدة العدوان الاساسية « بيزنطة » بفضل تطوير اسطول العرب المسلمين وبناء القوة البحرية في ثلاثة قواعد « طرطوس – الاسكندرية – تؤنس » والهيمنة على بحر الشام « البحر الابيض المتوسط » وعزل جزائر غرب المتوسط ،وحصر اسطول الروم في قواعده « القريبة من القسطنطينية » وبذلك أمكن للعرب المسلمين تنسيق التعاون بين عملياتهم القارية « البرية » وعملياتهم البحرية ، لعزل المغرب العربي عن المؤثرات الخارجية

فأمكن تحقيق الاستقرار وبناء المجتمع الجديد – مجتمع العروبة والاسلام – بعيداً عن كل تهديد او حتى الخوف من التهديد الخارجي .

ويظهر هذا العرض الموجز ان معاملة عقبة لكسيلة لم تكن لتغير من الموقف شيئاً فسواء غضب كسيلة أو رضي ، وسواء عومل معاملة حسنة أم عومل معاملة سيئة فان عوامل الثورة والاضطراب كانت متوافرة لوجود الروم وتغذيتهم للثورة المضادة ووجود روابط قوية بين الروم والافارقة « السواحليين» مما كان يعرض الاقليم بكامله للفوضى والاضطراب والتمرد. وهذا ما يفسر قيام الثورة بعد الثورة ، وتعاقب الردة بعد الردة . لقد كان كسيلة مجرد أداة ، وكانت الكاهنة أداة اخرى في قبضة الروم . ودليل ذلك زوال عوامل الثورة لمجرد تحقيق النجاح في عزل الروم وابعاد نفوذهم نهائياً . وعلاوة على ذلك فانه من المستحيل افتراض قبول سكان البلاد « البربر » لدين الاسلام دفعة واحدة ، فقد لقي دين الاسلام مقاومة ضارية في الجزيرة العربية ذاتها قبل ان يستقر في القلوب وتتقبله النفوس ، ولهذا فان ظواهر الثورات وأعمال التمرد هي من الامور الطبيعية . فاذا أمكن تجاوز ذلك،واذا اخذت ظاهرة معاملة عقبة لكسيلة تلك المعاملة غير الطبيعية،فانه من المستحيل معرفة أسبابها وحوافزها بدقة ، لا سيما وأن هذه المعاملة كانت مغايرة لأساليب عقبة في القيادة ، بل مخالفة حتى لما عرف عن عقبة من خلق كريم وتقى وورع . ويظهر أن لدى عقبة من الحجج والاسباب ما حمله على

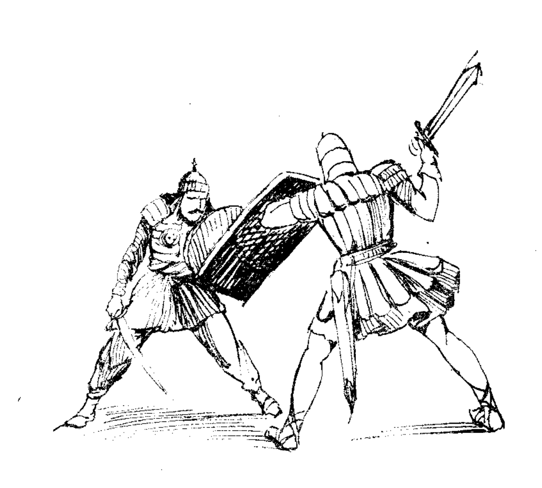
اتباع هذا السلوك ، والاساءة الى كسيلة ، فلعله شعر منذ البداية انه لم يكن صادقاً في اسلامه ولا مخلصاً في إيمانه ، وشعر أن الغدر متوقع منـــه ، فلم يقبل منه التمادي في التظاهر وخداع المسلمين . وأراد من استشارته ردعه ووضعه في موقع الاختبار. وترتبط ظاهرة التمرد بعامل آخر هو موقف الدولة الاسلامية الداخلي فقد توافقت هذه الثورات في افريقية مع ثورات أخرى داخل الدولة الاسلامية ذاتها ،فقد استطاع عبد الملك بن مروان القضاء على ثورة مصعب بن الزبير عام ٧٢ هـ — ٦٩١ م ثم تصفية ثورة عبد الله بن الزبير في السنة التاليـــة ، وجاءت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ، فأرهقت الدولة الاموية وأضعفتها بحيث تأخر القضاء على ثورة الأشعث حتى عام ٨٤ هـ — ٧٠٣ م . هذا مع تجاوز حركات التمرد والثورات والاضطرابات ذات الاهمية الثانوية ، وكان عدم الاستقرار عاملاً حاسماً في نجـاح الثورات المضادة وقيامهـا فقد أفاد الروم من هذه الاضطرابات لتوسيع نشاطهم المضاد في الشام ذاتها وفي افريقية .

وحتى تكتمل صورة الموقف فانه لا بد من اجراء مـا كان يحدث في المشرق الاسلامي مع مـــا كان يحدث في المغرب الاسلامي ، وان مطالعة مسيرة الأحداث على الجبهة الشرقيـة وتطوراتها تظهر ان الفتح العربي قد تعرض هنا أيضاً لانتكاسات كثيرة ، وحدثت حركات ردة متكررة سواء كان ذلك خـلال فترة الفتنة الكبرى والخلاف بين امير المؤمنين علي وامير المؤمنين معاوية ، أو خلال الثورات الداخليـة قبل امارة عبد الملك بن

مروان أو حتى أيام فتح قتيبة بن مسلم الباهلي ، حيث قام « نيزك » بثورة مضادة تطلبت جهداً كبيراً حتى أمكن القضاء عليها .

وقد تختلف وجهات النظر بالنسبة لحوافز الثورات المضادة وأسبابها وفقاً لطريقة معالجة المادة التاريخية ، وليس هذا هو المهم بالنسبة لدراستنا هنا ، فالدخول في هذه المتاهة يبعد البحث الموضوعي عن هدفه ، ولكن المهم هنا ابراز نقطة رئيسية واحدة « وهي ان ظهور الثورات المضادة كان أمراً طبيعياً يتوافق مع طبيعة الاشياء ذاتها وليس مغايراً لها ، وكان وجود التدخل الخارجي عاملاً رئيسياً في ظهور هذه الثورات وتصعيد حدة تفاعلاتها » وان ذلك يضع ثورة كسيلة في موقعها الصحيح ، وتبقى استفزازات عقبة بن نافع ، وأسلوب معاملته لكسيلة مجرد عامل مساعد لا أكثر ، فلولا تحريض الروم ووجودهم القوي على أرض افريقية ، ولولا بقاء المجال الحيوي لبيزنطة وامكان تحقيق الاتصال مع أهل البلاد وتحريضهم ، ولولا توافر الاستعداد الطبيعي لقبول كل ما هو جديد ، لما نجح كسيلة أو الكاهنة في اشعال نار الثورة المضادة للمسلمين . ولكن ورغم هذه الانتكاسات المريرة وما رافقها من احداث دامية ، فان الشواهد كلها تثبت بشكل قاطع أن الهدف الاساسي للفتوح قد تحقق بدلالة وجود أنصار للمسلمين العرب بين صفوف القبائل من أهل البلاد ، بحيث لم تمض سوى فترة قصيرة حتى اشتد ساعد

المسلمين وتعاظمت قوتهم ، فكانوا هم أنفسهم قوة لمتابعة الفتوح . واذا كان هناك فضل في ذلك ، فان هذا الفضل للرواد الأوائل الذين قادهم عقبة من صحابة ومجاهدين فبذلوا ما بذلوه ، وضحوا بدمائهم وأرواحهم حتى أمكن لهم ارساء البناء على قاعـــدة ثابتة أصلها في الارض وفرعها في السماء ، ولئن استشهد عقبة في تهوذة ، فان ما تركه من أعمال ومنجزات قـــد بقيت خالدة وشواهدها هي الرابطة بـين الماضي والحاضر وهي أساس بناء المستقبل .



المصادر والمراجع الرئيسية

المصادر

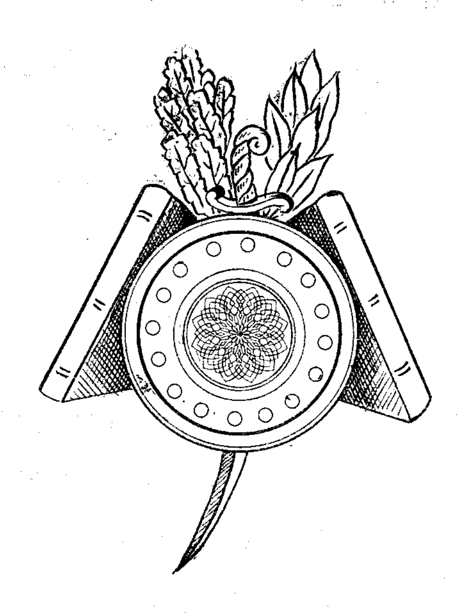
١ – القرآن الكريم .
٢ – سيد قطب ، « في ظلال القرآن » .
٣ – ابن الأثير ، « الكامل في التاريخ » و « أسد الغابة في معرفة الصحابة » .
٤ – ابن خلكان ، « وفيات الأعيان » .
٥ – ابن خلدون ، « مقدمة ابن خلدون » و « العبر وديوان المبتدأ والخبر » .
٦ – ابن خرداذبه ، « المسالك والممالك » .
٧ – ابن عبد البر ، « الدرر في اختصار المغازي والسير » .
٨ – ابن عبد ربه ، « العقد الفرد » .
٩ – ابن عساكر ، « التهذيب » و « التاريخ الكبير » .
١٠ – ابي يوسف ، « الخراج » .

١١ – الطبري ، « تاريخ الامم الملوك »
١٢ – الازدي المعروف بابن الفرضي ، « تاريخ العلماء والرواة بالاندلس » .
١٣ – ابن عبد الحكم ، « تاريخ فتوح مصر والمغرب » .
١٤ – البلاذري ، « تاريخ فتوح البلدان » .
١٥ – ابن سعيد الاندلسي ، « تاريخ المغرب في حلى المغرب » .
١٦ – الهرثمي ، « مختصر سياسة الحروب » .
١٧ – ياقوت الحموي ، « معجم البلدان ».
١٨ – احمد بن سعيد بن حزم ، « جمهرة انساب العرب » .
١٩ – ابو عبدالله المالكي ، « رياض النفوس » .

المراجع

١ – اللواء الركن مصطفى طلاس ، « الرسول العربي وفن الحرب » .
٢ – اللواء الركن محمود شيت خطاب ، « قادة الفتح الاسلامي ، المغرب العربي ١ – ٢ » .
٣ – بسام العسلي ، « فن الحرب في عهد الخلفاء الراشدين والامويين » .
٤ – الدكتور احسان هندي ، «الجيش العربي في عصر الفتوح».
٥ – كارل بروكلمان ، « تاريخ الشعوب الاسلامية ».

٦ – ستيفن زينسمان ، « تاريخ الحروب الصليبية » .
٧ – ليسترنج ، « بلدان الخلافة الاسلامية » .
٨ – خير الدين زركلي ، « الاعلام » .
٩ – هاري . و . هازارد ، « اطلس التاريخ الاسلامي » .
١٠ – « أطلس القرن العشرين » .



محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة

صدر عن دار « النفائس »

الطريق الى المدائن

احمد عادل كمال ۱۲٫۰۰ ق٠ل

القادسيـــة

احمد عادل كمال ٦٫٥٠ ق٠ل

تاريخ فلسطين القديم

ظفر الاسلام خان ٣٫٥٠ ق٠ل

الفتنة ووقعة الجمل

رواية سيف بن عمر

تصنيف احمد عرموش ٤٫٥٠ ق٠ل

تنبيـــه

يستطيـع الزملاء الكرام ، الذين يجدون صعوبة في الاتصال بنا في بيروت ، أن يطلبوا كتبنا مـــن مكتب الشركة المتحدة للتوزيـع : ص.ب ٢٦٢٥ – دمشق .